رحلات بوركهارت

في بلاد النوبة والسودان

تأليف: جون لويس بوركهارت

ترجمة: فؤاد آندراوس

تقديم: محمد الصياد

الناشر: المركز القومي للترجمة

الطبعة الثانية: ٢٠١٦

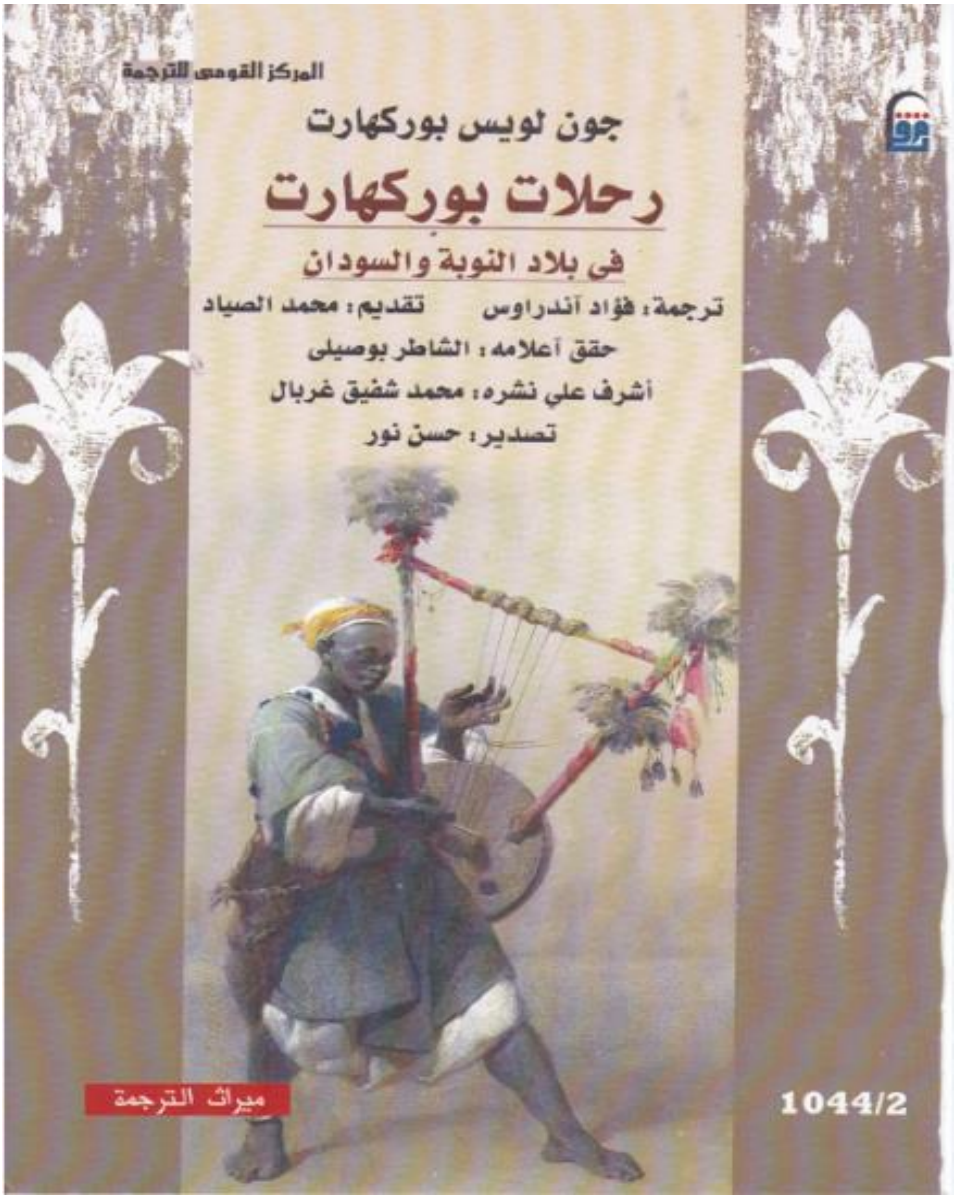

يأتي الكتاب في ٣٩٣ صفحة ويتكون من مقدمة وست رحلات؛

المقدمة: بقلم الدكتور محمد محمود الصياد
الرحلة الأولى: الرحلة على ضفاف النيل من أسوان إلى المحسّ على حدود دنقلة
الرحلة الثانية: العودة من دار المحسّ إلى أسوان
الرحلة الثالثة: الرحلة من صعيد مصر إلى بربر
الرحلة الرابعة: الرحلة من بربر إلى شندي.
الرحلة الخامسة: الرحلة من شندي إلى التاكة.
الرحلة السادسة: الرحلة من التاكة إلى سواكن
الرحلة السابعة: الرحلة من سواكن إلى جدة.
فهرس الأعلام

تصدير:

يبدأ الكتاب بتصدير من "حسن نور" للتعريف بالمؤلف "جون لويس بوركهارت" الذي ولد عام ١٧٨٤ بمدينة لوزان الفرنسية، وآثر والده الرحيل وأسرته عنها بعد قيام الثورة والتي كاد أن يفقد حياته لاتهامه بأنه ضد الثورة، فنشأ في سويسرا وتعلم في جامعات ألمانيا، وآثر الالتحاق بخدمة دولة لا تخضع لفرنسا فكانت تلك الدولة بريطانيا، وقد أثبت هذا الفتى قدرًا كبيرًا من الجلد والتحمل في تلك الظروف الصعبة من أجل تحقيق هدفه على مدى ثمان سنوات أنفقها في بلاد الشام وصحاري قارة افريقيا برحلته في بلاد النوبة وشبه الجزيرة العربية، ليخرج واحد من أمتع كتب أدب الرحلات، يكاد معه القارئ أن يتحرك ويتنقل معه في أسفاره سائرًا على قدميه أو ممتطيًا ناقته أو مبحرًا في نهر النيل أو البحر الأحمر.

المقدمة:

كان اختيارًا موفقًا بأن يقوم الدكتور "محمد محمود الصياد" ذلك الجغرافي الكبير، بتقديم الكتاب للحديث عن قدر "بوركهارت" الذي اختار النوبة والجزيرة العربية كي تكون مجال رحلاته، رغم أنه كان من المقرر أنه أرسل لاكتشاف "نهر النيجر"، وهو النهر الذي حير كثير من الأذهان، الأمر الذي استلزم إنشاء "الجمعية الأفريقية" عام ١٧٨٨ لسبر حقيقته، فحتى ذلك الوقت لم يكن أحد يعلم من أين ينبع نهر النيجر ولا أين ينتهي. وباءت محاولات تلك الجمعية جميعها بالفشل حتى أنها أرسلت اربعة رحالة، لديارد، ولوكاس، وهورنمان، وهوتن، لم يصادفوا إلا الخيبة، وفي المرة الخامسة كان "منجوبارك" أسعد حظًا بوصوله فعلا إلى نهر النيجر، لكنه لم يعرف من أين ينبع ولا أين يصب، وفي محاولة أخرى على حساب الحكومة حاول تكرار النجاح ولكنه مات عند مصب النهر، وكذلك مات رحالة آخر وهو "نيكولز" وهو يتأهب للرحلة عند خليج بنين.

كانت طبيعة أفريقيا صعبة سواحلها مستقيمة لا ترحب بضيفان ولا يوجد على امتدادها مرافئ طبيعية، اللهم إلا في سواحلها الشمالية، غاباتها تحجب إمكانية اختراقها، وصحاريها تضيف صعوبات أخرى أمام عملية المسير عبرها، لذا فإن أفريقيا ظلت لفترة طويلة مجهولة، حتى أن منابع

نهر النيل لم تكشف إلا في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، بعد أن ظل آخر مدى تتوقف فيه الرحلة عند منطقة السدود. رغم تلك المصاعب تقدم ذلك الفتى السويسري بطلب للجمعية الأفريقية يعرض فيها خدماته عليهم لاكتشاف أفريقيا، وخلال الفترة التي تقدم فيها بطلبه عام ١٨٠٨ حتى مجئ الموافقة الرسمية عام ١٨٠٩ انخرط الشاب في دراسة ما يؤهله خلال تلك البيئة الصعبة غير المضيافة، فحضر محاضرات في الكيمياء والتعدين والفلك والطب والجراحة، ثم تجول في ريف كمبردج يدرب نفسه على ما هو مقدم عليه من معيشة صعبة، نائمًا أسفل الأشجار حاملًا طعامه في صرة من القماش.

وفي مارس ١٨٠٩ ركب بوركهارت البحر متجهًا إلى بلاد الشام، وهناك قضى فترة طويلة يتنقل فيها بين مدنها ويتعرف على قبائلها ويتعلم اللغة العربية وذلك قرابة عامين ونصف العام، راسل فيها خلالها الجمعية بالكثير من الرسائل التي يتحدث فيها عما قابله خلال تطوافه بتلك البلاد، وكان قد تسمى في تلك الفترة باسم "إبراهيم بن عبد الله" لتيسير أمر وجوده وسط مجتمع مسلم، ولكنه وجد أنه ليس من الضروري التمسك بهذا التخفي، وفي رحلة انتقاله إلى مصر كان أول أوربي يزور مدينة "بترا" عاصمة بلاد العرب الحجرية، وعند وصوله القاهرة في سبتمبر ١٨١٢ سمع عن قافلة متجهة إلى بلاد النيجر عبر الصحراء الكبرى، لكنه آثر ألا ينتقل مع قافلة لا يعلم عنها الكثير، وفضل المكوث بالقاهرة ليألف حياتها.

قرر بوركهات القيام برحلة إلى بلاد النوبة وذلك اثناء انتظاره مجئ قافلة تتجه إلى بلاد النيجر، وخلال تلك الرحلات أنجز ما لم يرتب له من قبل، فقد وصل إلى نهر "استابوراس" عطبرة ومن هناك عبر الصحراء إلى سواكن على ساحل البحر الأحمر، ويعود إلى أسيوط، ومنها مرة أخرى في رحلة ثانية إلى بلاد النوبة. وقد عبر بوركهارت البحر الأحمر إلى بلاد الحجاز وأدى مناسك الحج، ويذكر أنه تعرض لامتحان لاختبار إسلامه من قبل محمد علي الذي يعلم علاقته بالإنجليز، وكانت النتيجة اقتناع الممتحنين أو على الأقل المستمعين بصحة إسلامه.

كانت كتابات بوركهارت وما أرسله للجمعية الأفريقية على قدر كبير من الدقة والموضوعية، وقد تناولت الكثير مما كان غير متاح عن شبه الجزيرة العربية وقبائلها، وحروب محمد علي ضد الوهابية، والحركة الوهابية والشيخ محمدبن عبد الوهاب، وعلى الرغم من عدم تمكنه من تحقيق هدفه بالوصول إلى نهر النيجر، إلا أنه لم ينتظر مجئ تلك القافلة التي ترحل به إلى هناك، ولكنه تجول في أنحاء كثيرة ونقل الكثير من المعارف إلى الجمعية، حتى أنه أرسل لهم كتابات عن الأمثال العربية في مصر، وعمل بالآثار مع كل من هنري صولت قنصل بريطانيا العام في مصر وجيوفاني باتيستا بلزوني الإيطالي. وقد اجتهد ثلاثتهم في نقل الكثير من الآثار المصرية إلى بريطانيا وكان منها رأس ممنون "رمسيس الثاني" التي نقلوها إلى بريطانيا.

وبالرغم من أن بوركهارت لم يتمكن من إنجاز المهمة التي أرسل إليها من قبل الجمعية الإفريقية، وذلك لوفاته بالقاهرة عام ١٨١٧، إلا إنه يعد واحدًا من أفضل رحالة القرن التاسع عشر، وقد نشرت رحلاته هذه في أكثر من مجلد وترجمت لأكثر من لغة، لتكون شاهدة على ذلك

الشاب الصغير الجلد الصبور، الذي دفع حياته من أجل المعرفة، بل إن الجمعية الإفريقية لم تتمكن من ملأ الفراغ الذي خلفه بسهولة، وقد كانت رغبة بوركهارت، أو الحاج إبراهيم المهدي، أن تكون جنازته إسلامية، فتم له كما وصى، وكانت جنازته حافلة تتفق مع المركز المحترم الذي اكتسبه في عيون المصريين.

الرحلة على ضفاف النيل، من أسوان إلى المحس على حدود دنقلة.

في هذه الرحلة التي استغرقت خمسة وثلاثين يومًا جهز بوركهارت احتياجاته لتلك الرحلة باقتناء هجينين من الإبل له وللخبير الذي يسير به في بلاد النوبة، ودعم نفسه بخطاب من حاكم إسنا، بالإضافة إلى الخطاب السابق الذي كان من محمد علي، والذي رأى فيه أنه قليل الأهمية لكونه مكتوب بالتركية، وفي تلك الرحلة يلاحظ أن الأهمية هنا أضحت لمدينة إسنا، حيث تراجعت أهمية مدينة أسوان خلال تلك الفترة، كذلك النشاط التجاري الكبير الذي تقوم به قبائل البشارية والعبابدة، وتجارتهم بالإبل مع سكان الوادي بسوق إسنا، كما يلاحظ أن الحد الجنوبي لمصر عند بوركهارت هو "البربا" وهي قرية صغيرة واقعة قبالة جزيرة فيلة، ويطلق عليها أيضًا أنس الوجود، ومن جزيرة فيلة تبدأ بلاد النوبة، وخلال مسيره ملتزمًا الحافة الشرقية لنهر النيل، يقدم بوركهارت وصفًا رائعًا للسهل الفيضي الضيق هنا والذي لا يزيد عن ١٠٠ ياردة، أي نحو ٩١متر، وصخور الفلسبار والجرانيت الأحمر، وتلك الأطعمة التي تناولها في بيوت مشايخ القرى التي مر عليها، والحروب التي تنشأ بين النوبيين من أسوان وجيرانهم في الجنوب، ويقدم بوركهارت كثير من التعديلات على سابقيه من الرحالة بالتمييز بين تلك الأودية التي مر عليها، وهو يقصد بالأودية هنا ليس المعنى الجغرافي ولكن العديد من القرى التي تتجاور مع بعضها البعض، حتى أن تلك القرى تمتد لعدة أميال على طول الضفة الشرقية لنهر النيل، كالحال في "وادي دهميت"، ويشير بوركهارت إلى الحاح سكان النوبة والقرى التي مر عليها في التعرف عليه وعلى مقصده، فكانوا فضوليون بشكل لم يره بوركهارت في غيرهم من قبل كما قال.

وإلى الجنوب من خرائب "تافيس" ينقطع السهل الفيضي وتقترب الهضبة الشرقية بشدة من النهر، فكان لابد من اختراق الهضبة " أو كما يسميها بالجبل" لنحو ساعة، سائرًا بين صخور جرانيتية حتى يصل "دار موسى"، ويذكر بوركهارت هنا ذلك الحظر الذي فرضه محمد عليّ على المماليك الفارين في بلاد النوبة، بأن منع تداول البارود في الصعيد، ليمنع وصوله إليهم الأمر الذي جعلهم يقدمون عبدًا مقابل دستة بارود، وقد طلب داود بن حسن الكاشف من بوركهارت نفسه بعض البارود، فتعلل بأن الكمية التي معه لا تكفيه إلا بالكاد. ومنذ أن غادر بوركهارت أسوان يوم ٢٤ فبراير من عام ١٨١٣ حتى وصوله إلى بلدة الدُر في الأول من مارس، لا يجد أمامه سوى أطلال معابد وبقايا مدن مصرية مماثلة لتلك التي تركها ورائه، وطبيعة تكاد لا تتغير من سهل فيضي ضيق لا يزيد عرضه عن بضع مئات من الياردات، واستغلال السكان لها في الزراعة.

وكان بوركهارت حريصًا على التمييز بين سكان تلك البلاد من النوبة وغيرهم من القبائل العربية، التي وجدها في "وادي السبوع" و "وادي العرب"، وقد أشار إلى أنهم من عرب العليقات،

وأنهم سكنوا الوادي منذ الفتح الإسلامي لبلاد النوبة، ويشير بوركهات إلى أن امراء النوبة قلما كانوا يبتزونهم بفرض ضرائب إضافية لوزنهم السكاني الكبير في المنطقة، وأنهم لم يكن يجيدوا غير اللغة العربية. بوصوله إلى بلدة "الدُر" التي اعتقد أنها أكثر البلاد فيما بين "كرسكو" و "دنقلة" أهمية، وأهلها أكثر اعتناءًا بالزراعة، قدم نفسه إلى أميرها حسن الكاشف باعتباره سائح ولكن هيهات أن يقنع هذا الأمير، لما وجدوه مجيدًا للعربية على دراية بالعادات التركية، فاعتقد أنه جاسوس من قِبل حسن بك حاكم "إسنا". ورغم الهدية التي قدمها له ممثلة في الصابون والبن والطربوش الأحمر فإنه رفض روايته، ولكن القدر كان رحيمًا ببوركهارت في إكماله رحلته، بل حصل على خطاب توصية من الكاشف نفسه لأمير بلدة "سكوت".

وقبل أن يواصل بوركهارت طريقه من "الدُر" نحو "سكوت" يقوم بتقديم وصف تفصيلي للخصائص الطبيعية والجغرافية لوادي النيل في تلك المنطقة، مشيرًا إلى تجمع السكان على الضفة الشرقية لوجود التربة الخصبة مقارنة بالضفة الغربية التي تغزوها الرمال التي تحركها الرياح الشمالية الغربية، آتيًا على ذكر الحياة البرية النباتية والحيوانية لتلك البيئة، ذاكرًا العديد من الأمثلة عن النباتات والحيوانات السائدة بها، كذلك ذكر ما يمكن أن يطلق عليه الجغرافيا الاقتصادية بالمنطقة والأنشطة الاقتصادية التي يمارسها السكان، كذلك أشار إلى أن السكان يقسمون المنطقة فيما بين "أسوان" و "الدُر" إلى جزئين حيث "وادي الكنوز" و "وادي النوبة". ومستغربًا ما يمكن تسميته تلك الجزر اللغوية التي توجد في بحر عربي صرف، ممثلًا في لغة الكنوز حيث لا يتحدثون العربية، رغم وقوعهم بين بلدين يتحدثين العربية، كذلك أشار إلى أهمية بلدة "الدُر" كبلدة تجارية، ومنازلها الحسنة التي يوجد لحسن كاشف وأخويه منازل جيدة فيها كما أن معظم سكانها من البوشناق الذين أرسلهم سليم الأول للاستيلاء عليها، وكيف أن أهل "الدُر" ينتجون تمرًا جيدًا ولكنهم يغبنون في سعره والحال كذلك في سعر الذرة حيث تدر تلك المحاصيل نحو ٤٠٠% و ١٠٠% مكاسب للتجار بنقلها خارج "الدُر" إلى القاهرة وأسوان.

وفي طريقه من الدُر مرَ بوركهارت بإبريم فذكر سكانها البوشناق ذو الأصول التركية، وتميزهم بعدم خضوعهم لأمراء النوبة المحيطين بهم، وثرواتهم المكدسة من المحاصيل والماشية، لعدم دفعهم ضرائب، وإن تعرضوا لمجاعة جراء عملية النهب التي تعرضوا لها من قبل المماليك الفارين أمام إبراهيم باشا، وكانت من الخصال التي امتدحها في سكان إبريم بل وأهل النوبة عدم تفشي آفة السرقة فيهم، ومواصلًا المسير مر بقرية الشباك وتوشكى وأرمنة وفرقندي، وشتان بين وصفه بقرية أرمنة الجميلة وقرية فرقندي التي وصفها بالحقيرة، ثم أتى وادي فريق، وخلال تلك المسافة قابل بوركهارت العديد من المعابد المصرية القديمة، ورسم اشكال توضيحية لبعضها، وكذلك نقل بعض الكلمات المكتوبة على جدرانها، وفي طريقه يصل إلى قرية أدا وعندها تتكون جزيرة بلانة، وقد سميت على اسم قرية تقع على الضفة الغربية من النهر ثم قرية قسطل ثم قرية أدندان، وقبلها أشار بوركهارت إلى تلك الكيمان التي قام بتقدير عددها بنحو ٢٥، وأوضح أنها من صنع الإنسان، وقد اثبتت الحفائر الأثرية بأنها بالفعل تنتمي لملوك البليميس الذين حكموا النوبة

بعد الحضارة المروية. ومواصلاً المسير الذي يتراوح بين سبع وست ساعات ينتقل بوركهات من قرية لأخرى، أو من وادي لآخر، فيصل بعد أدندان جزيرة فرس المقابلة لجزيرة فرس على الضفة الغربية، ثم قرية سرة غرب الواقعة على الضفة الغربية ثم قرية سرة على الضفة الشرقية، ثم قرية دبرة، ومن طرائف بوركهارت في تلك الرحلة أنه كان لا ينال طعام العشاء أو الإفطار إلا عند كبار تلك القرى يأخذه دليله إلى الجلوس أمام بيوتهم، ولولا ذلك لعانوا الجوع جراء اقتصارهم على ما معهم من تمر.

وفي (٦ مارس) وصل بوركهارت إلى قرية أشكيت، وقد أكرمه أحد أمراء النوبة وعرض عليه المكوث لديه يومًا وسوف ينحر له شاه، ولكن فضل الرحيل حرصًا على وقته ليصل قرية دبروسة ثم سقوى ثم وادي حلفا، وكعادته يقدم بوركهارت وصفًا رائعًا لخصائص نهر النيل ووواديه في المسافة الواقعة بين حلفا وسكوت، حيث تكثر الجنادل التي تعترض مجرى النهر وتتعطل الملاحة مما أكسبها اسم بطن الحجر أو دار الحجر، وعلى جانبي النهر تقوم الزراعة التي تروى بالسواقي لارتفاع ضفتي النهر، والسكان هنا يدعون أنهم من أشراف مكة، ويسكن ملكهم وادي عطار، وإن آثروا الرحيل والهروب جراء الصراع مع عرب الشايقية إلى سكوت أو دنقلة، ويعبر هؤلاء السكان النهر على جذوع النخل مستخدمين أيديهم كمجاديف، وبعد وادي عطار يصل وادي مرشد ثم وادي ست الحاجة ثم وادي سرس، وهناك قابل جماعات من الحجاج السودانين التكارنة يعبرون البحر الأحمر إلى بلاد الحجاز من سواكن.

من وادي سرس اتجه إلى وادي وتيري الذي يعد أهم قرى بطن الحجر، وهنا تكثر الجزائر في النهر، وقد فضل السكان الإقامة في تلك الجزر طلبًا للأمان، وتوجد قلعة سمنة المصرية القديمة، وفي تلك المسافة عبر جبل بلكنو حيث يكثر صخر المرو وصخر الجرانيت وبعد مسيرة ساعتين وصل لسهل على قمة الجبل يدعى عقبة البنات وكذلك عقبة دوشة وبعدها وصل لوادي امبقول، وتعد جبال أمبقول هي أعلى جبال بطن الحجر، وواصل المسير إلى وادي أم قناصر ثم وادي لاموله، وعند جبل لاموله قام دليل بوركهارت بحفر قبر كما فعل عن عقبة البنات، بإدعاء أن هذا قبر رفيقه إن لم يقدم له عطاء، ورفض بوركهارت أن ينفحه ما يريد كما سبق وأعطاه عند عقبة البنات، وقام بحفر قبر بجواره وقال له أن هذا أيضًا قبره فما داموا أخوين فمن الإنصاف أن يدفنا سويًا، وبعد جبل لاموله وصلا إلى خور سنك، وسنك وادي يقع أسفل الجبل، وقد اقتربت الرحلة من سكوت وذلك بوصولهم إلى قرية اسمها وادي أكمة، ورغم اعتبارها من أرض بطن الحجر إلا أنها تعتبر من أملاك حاكم سكوت، وهناك آثروا التعرض لبرد الليل على أن يتدفئوا بنار تجذب أنظار عرب الشايقية.

وصل بوركهارت إلى مقابل جزيرة كولب على الضفة الغربية، وعندها عبر النهر على رمث أو طوف لمقابلة حاكم سكوت، وتعد جزيرة كولب بداية إقليم سكوت، وهنا تبدأ الزراعة بشكل منتظم، وبحصوله على خطابات من "داود كرا" تساعده على الاستمرار جنوبًا، عبر النهر مرة أخرى متجهة نحو الجنوب إلى وادي دال الذي يعد النهاية الجنوبية لبطن الحجر، ويكتنف مجرى النهر هنا

جنادل تعترضه بشدة، ويتسع السهل الفيضي مما يسمح بزراعة جيدة تظهر في خرائب مدينة الدابة ثم قرية سركاماتو، التي يعبر أهلها النهر للصحراء الغربية للحصول على الملح من واحة سليمة وهي محطة لقافلة دارفور في طريقها لأسيوط. ومواصلًا المسير على الضفة الشرقية للنهر وصل إلى فوكة، حيث يقيم بن حاكم سكوت، وكان حسن كاشف قد سبق وأنذره بأن فوكه هي آخر ما يمكن أن يصل إليه في رحلته نحو الجنوب بمفرده، وأنها هي آخر ما يمكن أن يصل الخبير معه في رحلته، ولكنه أقنع الخبيري بقرشين وملاية من الصوف بقيمة قرشين آخرين، وواصلا طريقهما جنوبًا إلى صاي فمرا بقرية مكركة ثم كنيسة ثم الشيخ مجدرة ثم عمارة التي تعد نهاية إقليم سكوت.

ينفرج عند عمارة السهل الفيضي ليبلغ عرضه قرابة ميلين، وبعد عمارة تقع قرية عبري وبعدها عند جبل العلاقي تبدأ جزيرة صاي وبها حصن قوي، ولجزيرة صاي وإقليمها حاكم مستقل عن أمراء النوبة، شأنه في ذلك شأن جزيرة إبريم، حيث يوجد بها حامية تنتمي للجنود البوشناق الذين أرسلهم سليم الأول من قبل للاستيلاء على بلاد النوبة، ومن عبري وصل إلى قوبق ثم وادي حميدة، ولها ملك من قبيلة بني حميدة العربية يتبع أمراء النوبة، وعند وادي حميدة تنتهي جزيرة صاي، ويعد وادي حميدة أكثر الجهات عمرانًا إلى الجنوب من إبريم، ويمتاز بتمرة الجيد ولا يضاهيه أي بلح فيما بين إسنا والإسكندرية، ورغم جودته فإنه لا يصل منه شمالًا إلا القليل لصعوبة النقل عبر النهر الممتلئ بالجنادل. ويقايضون عليه عرب الشايقية بالذرة، وفي طريقهم جنوبًا وصلا إلى وادي عبود ثم إرو التي تعد الحد الجنوبي لإقليم صاي.

ويتجه الطريق بهم على جانب نهر النيل نحو الجنوب الغربي ليصلا إلى اشمته بداية إقليم المحس ثم قرية الواوي وهي قرية كبيرة لعرب القراريش، وبعدها يضيق السهل الفيضي وتحدق الجبال بالنهر، والقرى هنا بسيطة يوجد بها سكان أشبه بالزنوج لا يسترون أنفسهم بشيء، وقد أقصت النوبية هنا اللغة العربية، وعند وادي تيناري الذي يعد أهم قرى إقليم المحس، والتي تقوم حول حصن تيناري، بلغ بوركهارت مقر حكم محمد كاشف، وإن لم يجده لأنه كان مشغولًا في محاصرة حسن تيناري مع أخيه حسين، وكان أحد الثائرين من بني عمومة المحس قد استولى على الحصن، ولكن الأخوين استطاعا استرداده. وكاد بوركهارت ان يفقد حياته على يد محمد كاشف لشكه في كونه جاسوس لمحمد علي ولكن كان لأخيه حسين رأي آخر بأن أبقى على حياته مقابل الحصول على بعيريه، ولولا شخصين من أبناء حاكم سكوت، أكدوا على صدق كلام بوركهارت لواروه التراب، وعند تيناري أدرك أنه من الأنسب له أن تكون هي آخر حدود رحلته نحو الجنوب، وسعى للعودة رغم محاولتهم تعويقه وتأخيره للعودة مع قواتهم المتحركة نحو الشمال.

وقد اكتفى بوركهارت بتقديم معلومات وافية عن إقليم المحس، الذي يدع أهله أنهم من نسل قريش، ويوجد وادي المحس بعد تيناري بمسيرة يومين، ومن المحس إلى سنار يوجد العديد من الملوك الذين يحكمون أقاليمهم، ويزيد عدد هؤلاء الملوك عن عشرين، والتجارة مهنة كل محترم في المحس، ويرسلون قافلتين سنويًا للقاهرة بالعبيد ويكسبون من بيعهم مبالغ ضخمة، وكذلك الحال من تجارتهم التي يجلبونها من مصر، ولا يتاجرون مع دارفور أو برنو لصعوبة الطريق وعدم توافر

المياه فيه. أما عن قرى إقليم المحس فهي دلقو وتقع على الضفة الشرقية للنيل، ثم كوكه على الضفة الغربية، ونوري على الضفة الشرقية، وبرجه وفريق على الضفة الغربية، وحانك وجنوبها تبدأ جزيرة مشو يقابلها على الضفة الغربية قرية بنفس الاسم، وبجانبها جزيرة أرقو وهي من أعمال دنقلة، وتعد جزيرة مشو حد إقليم دنقلة الشمالي.

أما وادي دنقلة وعنده ينتهي الكلام باللغة النوبية، فيمتد مسيرة خمسة أيام جنوب جزيرة أرقو، وكان عرب الشايقية قد استولوا على الإقليم من خلال صراعهم مع أسرتي الزبير والفونج، وهنا سهول فيضية متسعة يبلغ عرضها عدة أميال، وتشتهر دنقلة بخيولها العربية الأصيلة، والتي أهدى منها محمد علي للباب العالي واحدًا دفع فيه ٧٥٠ ريالًا إسبانيًا، يسكن مدينة دنقلة أو "دنقلة العجوز" كما يسميها الأهالي أو "تنكل" قبيلة من البدو تعرف باسم الكبابيش، ويعيش فيها كذلك مجموعات من قبيلة العبابدة، وإلى الجنوب من مدينة دنقلة توجد قرى أفار ودفار وحيتاني وكنات وأمبقول، وعند أمبقول ينتهي إقليم دنقلة ويبدأ إقليم عرب الشايقية، وأول بلاده هو قوص ويقطنها قبيلة العونية، يليها حاتك الزبير ويسكنها قبيلةبنفس الاسم، ثم دار السواراب، وكربر وقرى وأبرسنار، ووسطه، وتقسي، والكرو، وغوشابي، ومروي، والبركل ونوري، والكاسنجر، والحمداب، وأولي، وزوارة، ودلقو التي ينتهي عندها إقليم الشايقية، الذي يقطع فيما بين خمسة وثلاثين وأربعين ساعة، وأهم بلاد هذا الإقليم قرى غوشابي ومروي، وتعد مروي عاصمة إقليم الشايقية، وبين دنقلة ومروي وادي "قرى" عرب البديرية، وكانوا حتى وقت قريب من زيارة بوركهارت يخضعون للشايقية.

وقد أسهب بوركهارت في الحديث عن عرب الشايقية وثروتهم وإقليمهم، وصراعهم مع الزبيرية والفونج حتى استولوا على ممالكهم، ولكن المماليك قتلوا كبير الشايقية محمود العدلانابي وسلبوا أموالهم رغم ضيافته لهم، الأمر الذي جعل أخيه طبل بن الزبير يلجأ للقاهرة طالبًا المعونة من محمد علي، وكان بوركهارت قد تنبأ بهزيمتهم لانسداد المسالك أمامهم وليس لهم من طريق إلا محاولة الحصول على منفذ على ساحل البحر الأحمر كي يكون نافذة لجلب المماليك من جورجيا، وذلك باستيلائهم على مصوع، وقد كان يعتقد أن استيلائهم على الحبشة يعد منفذ تجاري جديد لشركة الهند الشرقية، ولكن كان محمد علي لهم بالمرصاد ووأد أفكارهم وأفكار بوركهارت نفسه بالقضاء عليهم وفتح السودان.

الرحلة الثانية: العودة من دار المحسّ إلى أسوان.

إنطلق بوركهارت في طريقه شمالًا إلى أسوان، عازمًا على الإسراع قبل أن يلحق به لجنود محمد كاشف اللحاق به وذلك في (١٥ مارس)، وكان دليله قد تواطئ في تأخيره ولكنه لم يفلح، ووصل في سيره إلى مكان قرب قرية صلب الواقعة على الضفة الغربية وكان عازمًا على العبور إليها لتفقد ذلك المعبد الرائع المكتمل البناء الشبيه بالمعابد المصرية، ولكنه لم يتمكن لعدم توافر طوفًا أو قربة من القرب، وبلغ الواوي ثم اشمنة ثم وادي عبود ودار حميدة وقويق، وتفسيرًا للفارق بين زمن الرحلتين في الذهاب والإياب، اشار بوركهارت إلى أنه في طريق ذهابه كان يقطع ما بين ثلاثة

أميال وأربعة أميال في الساعة، أما في طريق العودة فكانت تتراوح بين ثلاثة أميال وميلين في الساعة، حفاظًا على البعيرين وخشية عليهما من الإرهاق. وعند فركه استظلا في خيمة من خيام عرب القراريش، وعند جزيرة كولب عبر بوركهارت ودليله النهر بمساعدة داوود كرا، على خشية من التماسيح التي توجد بالنهر، وفي الجزيرة راعه أطلال الأبنية التي تحتفظ بألوانها زاهية نظرًا لجفاف البيئة في بلاد النوبة. بعبوره إلى الضفة الغربية يواصل رحالّتنا المسير ليصل إلى وادي أكمة، ومنها إلى سنكي في رحلة وسط بلاد خربة وتلال رملية عالية، وعندها تسفي الرياح الرمال في النهر كأنها سيول، يلاحظ من وصف الحافة الغربية للصحراء الغربية أنها أقل ارتفاعًا وأقل تضرسًا من الحافة الشرقية. ليصل إلى وادي فرمكة ثم وادي أمبقول، وتتبعه العديد من الجزر في النهر.

وعند وادي أتيري قضا ليلتهما وحصلا على الزبد واللبن مقابل الذرة، وعلى امتداد النهر قرب الطرف الشمالي لوادي أتيري تجاه عقبة البنات على الضفة الشرقية سارا في بطن الحجر لا يجدون غير قليل من النخيل الذي يستطيع المسافر أن يجمع منه التمر لأنه بدون صاحب، وعند وادي سمنه شاهد النيل يقتحم طريقه وسط خانق لا يتجاوز عرضه خمسين خطوة، كونته صخرتان ناتئتان من الضفتين، على الصخرة الغربية أطلال معبد يشبه معبد الفنتين الصغير، تاركين وادي سمنه نحو وادي سرس في الشمال عثر على قلعة عتيقة تقع عند الحد الشمالي للوادي تُعرف باسم إسكر على إحدى جزر النهر، وفي (٢٠ مارس) وصل إلى وادي جمني، والأرض هنا أقل وعورة ويخلو النهر من الصخور والجزائر، وعند وادي مرشد يتسع السهل الفيضي وتوجد به آثار زراعة قديمة، ولكنه اليوم مهجور. وعند وادي سولة توجد خرائط سور من الآجر يمكن للناظر من فوقه أن يرمي ببصره بعيدًا فيحيط بمنظر النهر وجزائره.

وعند وادي حلفا حيث الشلال الشهير في خرائط الأوربيين باسم الجندل، يعيش العرب في الجزائر القريبة منه ويصطادون سمك كثيرًا بإلقائهم شباكهم على المساقط، ولرغبته في الوصول إلى مكان آهل بالسكان لنفاد ما معه من زاد عدا الذرة سار حثيثًا حتى بلغ ضفاف النيل أمام سقوى، وتجاه دبروسة على الضفة الشرقية حط برحالة عند عرب القراريش في إحدى جزر النيل وهناك ابتاع منهم الذرة، وفي (٢١ مارس) وصل لقرية أرقين بعد أن كاد بعيره يتردى في الوحل الفاصل بين الجزيرة والبر، وبعدها إشكيت ثم واصل المسير ليشاهد قرية دبيرة الواقعة على البر الشرقي، وبلغ سره التي تكاد تواجه نفس القرية الواقعة على الضفة الشرقية، وإلى الشمال منها توجد قرية صغيرة اسمها أرتينوق وبعدها قرية فرس وتقع تجاه الجزيرة التي تحمل نفس الاسم، ومن فرس حتى قرية أدندان تستمر تلال سره الرملية، وبعد أدندان عَبر مجرى جاف لفرع من فروع النيل ليصل إلى جزيرة بلانة، ليستقر عند كوخ من أكواخ عرب القراريش عند قلعة أده.

وفي يوم (٢٢ مارس) عاد إلى البر ليواصل المسير ليمر بقرية بلانة، وبعدها يرتقي جبلًا رمليًا، وفي هذه المنطقة يسير النهر وسط جبلين، يعرف في الشرق باسم وادي فويق، وفي الغرب باسم أبو سمبل، وقد رد تسميتها إلى تحريف الكلمة اليونانية Polis بمعنى مدينة، وهناك تجول في معبد أبو سمبل المحتفظ بجماله وبهائه وقدم وصفًا تفصيليًا للمعبد، مع الإشارة إلى تلك التماثيل التي

تطمرها الرمال، والتي كاد أن يعود أدراجه دون أن يلتفت لوجودها بفعل الرمال التي تغطيها، وكان أهالي قرية بلانة والعرب المجاورين يعتصمون بمعبد أبي سمبل من غارات القبائل المغربية التي تهاجم الضفة الغربية لنهر النيل مبتدئين بأرقو ماضون إلى المحس وسكوت وبطن الحجر ووادي حلفا مرتقين الجبل متجهين صوب أسيوط.

ومن أبي سمبل واصل المسير ليصل إلى أمام فرقندي الواقعة على الضفة الشرقية، وقد لاحظ وجود شاب وفتاة جميلة أوفدهما أهلهما ليلاحظا زرعًا لهم، وقد سألها إن كانت لا تخشى من البقاء معه بمفردها، فأجابت إنه ابن عمها، وأن ابناء العم عند البدو يعدون في مقام الأخوة والأخوات. وفي يوم (٢٣ مارس) وصل إلى قرية توشكى الواقعة على ضفتي النيل، وبعدها وصل مصمص الواقعة قبالة وادي البستان، وبعدها وصلا لقبالة وادي الشباك على الضفة الشرقية، وقد سار في سهل فسيح محصور بين الجبال الغربية ونهر النيل، وقد رأى على يمينه قرية قته، وعلى بعد ميلين منها عثر على تل منعزل من الحجر الرملي نحتت فيه حجرة دفن صغيرة، ملحق بها حجرات مزدانة برسومات لا زالت محتفظة بألوانها، تحمل العديد من الرسومات والنقوش تمثل صور لتحنيط جثة ميت، وصور تمثل موضوعات زراعية كالحرث وبذر الحب والعزق. ثم عاد للنيل مرة أخرى عند قرية تعرف باسم عافية، ليصلا موقعًا مقابل توماس على الضفة الشرقية، وهي قرية كبيرة، وعندها حطا رحالهما عن بيت من بيوت حسن كاشف.

وفي يوم (٢٤ مارس) وصل من توماس إلى موقع الدُر، وعند معديتها قابل "حسن كاشف" الذي عامله بفتور، وسأله عن سبب ذهابه للمحس، وعن الهدايا التي قدمها لأخويه، وتساءل كيف أخليا سبيله وهو لا يحمل لهما خطابا توصية؟ وقد رأى بوركهارت نموذج من الاستبداد والطغيان، حينما أمر حسن كاشف أحد الفلاحين بأن يزرع أرضه بطيخًا بدلًا من الشعير الذي قد قارب على النضج، وأعطاه بذور البطيخ فلما لم يوافق، أمر الكاشف رجاله بخلع الشعير وتمهيد الأرض لزراعة البطيخ، فنكب الرجل في رزقه وحصل الكاشف على غذاء لجياده تكفيها ثلاثة أيام. وعاد بوركهارت للدر شاكرًا دليله القراريشي الشيخ محمد سعد، ونفحه بعض النقود وملاية صوف، وإن عاب عليه أنه لم يخبره عن طول المسافات التي سيقطعها أو بذكر الأماكن التي يجب أن يحط بها رحالهما، معتقدًا أن ذلك يتعارض مع قدرة الله تعالى وتطاول على مشيئته. وقد أكد بوركهارت على إمكانية أن يطمئن السائحون على أنفسهم في رحلاتهم حتى وادي حلفا، ما دامت في مصر حكومة قوية يخشاها حكام النوبة، وفي الدُر استعان بوركهارت بخبير آخر ليصحبه إلى أسوان، وعبر النهر ثانية، ليقيم الليل أمام الديوان تقريبًا في كوخ بناه بعض العمال على الضفة الغربية، وبالقرب من مقر إقامته اشار إلى وجود بقايا قرية تعرف باسم الحصاية، بها خرائب معبد صغير.

وعلى مسافة صغيرة من الحصاية توجد قرية الريقة التي تقع على الضفة الشرقية للنهر، وقد أشار بوركهارت إلى وجود درب قصير في الجبل يصل بين الدُر وأسوان، ولكنه آثر السير مع النهر، ومتحدثًا كجيوموروفولوجي اشار إلى وجود طبقة من الغرين من رواسب النهر تحت الرمال في منطقة لا تصل إليها مياه نهر النيل حتى في أوقات فيضانه، ويدل هذا على أن إما أن قاع النهر أو فيضانه

كان فيما مضى أعلى بكثير في النوبة عما هو في الوقت الحالي، وإلى الشمال من هذا المكان مر بموقع تجاه قرية سنقاري على الضفة الشرقية، ثم قرية صغيرة تعرف باسم المالكي وتقابل الطرف الشمالي لوادي سنقاري، ثم وصل وادي العرب، وتجاه وادي السبوع تحدث عن مشاهداته لأطلال معبد شبيه بمعبد القرنة بطيبة.

وفي يوم (٢٦ مارس) وصلا لوادي المضيق حيث يكثر السنامكي، وسكانه قليلون، وقد مات أكثرهم من مرض الجدري، ثم مر تجاه وادي النصرلاب، ليبلغ قرية خربة اسمها البوابات تواجه سيالة الواقعة على البر الشرقي، ووادي النيل هنا شديد الضيق، وبعدها بفترة بلغ وادي المحرقة الواقعة على جانبي النهر، وتقوم الزراعة هنا فقط بجانب النهر رغم اتساع الوادي، وقدم بوركهارت وصفًا لأطلال أحد المعابد الموجودة بتلك القرية، ونسخ عن كتاباتها الهيروغليفية بعض النصوص، بالإضافة إلى نصوص بالكتابة الشعبية التي توجد على البرديات، وقد أشار إلى أن تلك المعابد ربما ترجع للعصور البطلمية. وقد أثاره وجود كثير من الأكوام الهائلة من الأنقاض التي يكثر فيها الفخار، ورفض فكرة أن تكون تلك البقايا هي حطام الأواني الفخارية التي يستعملها السكان في البيوت، وحاول تفسير أمرها بردها إلى أن السكان كانوا يميلون لبناء مساكنهم بالفخار لأنها أخف وأسرع في البناء وأجمل مظهرًا، أضف لذلك صعوبة نقبها ليلًا من قِبل اللصوص وإن حاولوا فإنها تنهار محدثة صوتًا على عكس الطوب اللبن. وبعد جزيرة ضرار التي تبدأ بالقرب من وادي المحرقة توجد قرية قورته، وبجوارها معبد خرب أصغر ما رأى بوركهات من المعابد المصرية.

وفي (٢٧ مارس) رأى بوركهارت أطلال معبدين اعتبرهما أروع ما يرى السائح من آثار وادي النيل، والمعبدين كما ذكر آية في روعة التصاوير والرسومات التي تزين جدرانهما، وقد نقل عن الكتابات التي توجد على حوائطها العديد من النصوص الإغريقية والمصرية، وكان "دينون" قد سبق ووصف تلك الأطلال وعرفها باسم معبد الدكة، وبالقرب من المعبد خرائب مدينة عربية قرأ على شواهد قبورها كتابات بالخط الكوفي، وبين الدكة وقربة نبنان الواقعة أمام دراو شمال أسوان، درب يخترق الجبل (الهضبة) الغربي يقطعه المسافر في ثلاثة أيام، وبه بئر يسمونه بئر كركر، وفي طريقه وصل لوادي كشتمنة ثم وادي قرشة، وفي شمالها معبد لا يقارن بسابقه، حيث يمتاز بالضخامة ويخلو من الجمال ويسمي الأهالي المكان الذي يوجد به المعبد باسم جرف حسين. وقد اعتقد بوركهارت أن قرشة وربما قرية دندور التي تقع شمالها هي Tutzis القديمة، ومبتعدًا عن النهر لضيق سهله سار على الجبل الصخري حتى وصل قرية مارية حيث بات ليلته.

وفي (٢٨ مارس) وصل وادي دندور، وقد اندهش لوجود أطلال معبد آخر، حيث أن الشاطئ هنا ضيق لا يحتمل وجود مدينة ذات شأن. وعند مرواو، التي تتبع وادي غربي دندور، لا يتجاوز عرض الوادي خمسين ياردة ولكنه زكي الزرع، وعند أبو هور، وجد الأهالي حريصون على الأرض الزراعية وراغبين في زيادة مساحتها ببناء أرصفة كثيرة تمتد في مجرى النهر. وهنا يكثر النخيل والسنط الذي يثمر ثمرة تشبه الخروع يجمعها الأهالي ويبيعونها للتجار المصريين الذين يستخدمونها في دبغ الجلود، وببلوغه كلابشة التي تعد أكبر القرى الواقعة على الضفة الغربية يجد أطلال معبد

هائل يمتد على طول النهر قدم له وصف تفصيلي وافي، وقد عده ومعبد الدكة من أثمن الآثار المصرية القديمة، كما قدم وصف لمعبد آخر صغير منحوت في الصخر يقع إلى الشمال الغربي من معبد كلابشة، يسميه الأهالي بيت الوالي، يصعب على المسافر في النيل أن يراه إلا إذا استفسر عنه، وقد أسهب بوركهارت في وصف الصور الرائعة المرسومة على جدران ذلك المعبد والتي توضح انتصار القائد في معركة حربية يبدو أنها دارت رحاها في أقصى الجنوب على حدود الحبشة، حيث ظهرت الفيلة والزراف في صور المعركة الحربية. وبالقرب من تلك المعابد يوجد التل الذي قطعت منه أحجار معبدي كلابشة ومدينة تلميس Talmis والمدينة المواجهة لها على البر الشرقي Contra Talmis وقد كان ثرائها من التجارة لا من الزراعة لضيق السهل الفيضي بالقرب منها والذي لا يتجاوز عرضه أربعين ياردة. وتجاه جزيرة دارموت إحدى القرى التابعة لكلابشة، واسمها خرطوم، قضي بركهارت ودليله ليلتهما وقد أصابهما برد شديد جراء المطر الذي تساقط ليلًا، واشتد عليهما قيظ النهار، فكأنهما انتقلوا فجأة من وقدة الصيف لزمهرير الشتاء.

وفي (٢٩ مارس) ارتقى الجبل الذي يطل على الطريق ورأى كثير من حطام الأعمدة والتيجان المصرية القديمة، وعند قرية طافية وجد كذلك أطلال معبدين صغيرين، ويزعم فلاحوا طافية، والتي يعتقد أنها Taphis القديمة، أنهم سلالة المسيحيين الذين سكنوا المدينة قديمًا، وقد اعتنقوا الإسلام حين فتح المسلمون البلاد، ولا زالوا يدعون باسم "أولاد النصارى". وعلى الضفة الشرقية توجد طافية شرق Contra Taphis، وبين طافية ودهميت وادي يطلق عليه اسم امبركاب، حيث تغزر السنامكي، وقد مرا في طريقهما شمالا بهنبداو ثم قرتاس، وهناك وجد بقايا سور حجري يبلغ طوله مائة وثلاثين خطوة وعرضه مائة، وقد رده إلى العصور الرومانية باعتباره أحد الأسوار التي بنيت للدفاع عن البلاد ضد هجمات البلميس. ويكثر في هذه المنطقة محاجر الحجر الرملي الذي اقتطعت منه الأحجار التي بنيت بها معابد فيلة ودبود، وقد عثر على بعض الكتابات المصرية والإغريقية نقل منها بعض النصوص الإغريقية. وفي طريقه إلى دبود التي تتكون من عدة قرى على جانبي النهر مر بوادي حديد الذي يقع تجاهه وادي مهذاب، ثم وصلا جعرة والوادي في المسافة بينها وبين طافية جيد الزرع، وينتهي وادي امبركاب عند قرية دهميت، والزراعة في دهميت شرق أجود منها في دهميت غرب، وقد أقام الأهالي سورًا من اللبن يمتد موازيًا للتلال ومجرى النيل مسافة خمسين ياردة كي يصد رمال الصحراء، ومرا بقرية مربس التي تقع تجاه قرية السيالة في الشرق، والصخور على جانب النهر هنا من الجرانيت وتظل كذلك على طول الطريق لأسوان، وإلى الشمال من السيالة شرق تقع قرية عبدون. وقد قضى المماليك في تلك النواحي فترة وقد اضطروا للتراجع أمام تقدم إبراهيم باشا، وأثناء إقامتهم عز العلف فاستخدموا سعف النخيل علفًا لحيواناتهم الأمر الذي حرم النوبيون محصول نخلهم سنة كاملة.

وفي (٣٠ مارس) واصلا المسير فوق سهل جيد الزرع حتى جائا معبد دبود الذي يقوم على مدينة Parembole الأثرية، وقد أتى على وصف المعبد، وهو معبد قليل الجمال مقارنة بمعبد فيلة، الأمر الذي جعل بوركهارت يعتقد أن بناءه تم في بدء اضمحلال الفن المصري، وقد رتب بوركهارت

المعابد النوبية حسب عصور بنائها كما يلي: أبو سمبل، وقرشة، والدُر، وسمنة، وبلانة، والحصاية، والسبوع، والعمارة وكلابشة، والدكة والمحرقة، وقرتاس، ومرواو، ودبود، وقورته، وطافية، وقد عبر بوركهارت مع دليله وبعيريه نهر النيل إلى جزيرة فيلة، وهناك وجد أصحاب المراكب يبالغون في الأجور نظير العبور للجزيرة، وآخرون يطالبون بأموال بإدعاء أنهم سادتها، وقد كانت طلبات هؤلاء المالية في رأي بوركهارت زهيدة مقابل مشاهدة أثمن أطلال مصر القديمة، حيث طلبوا منه ستة قروش، ولكنه لم يقدم لهم غير قرش واحد، ولما رفضوا قرر أن يصل الجزيرة سباحة، وبإنتهائه من زيارة جزيرة كلابشة عاد إلى اسوان بعد أن قضى في رحلته تلك خمسة وثلاثين يومًا، لم ينل فيها من الراحة غير يومًا واحدًا، ومن ثم قرر أن يستجم أيامًا في أسوان يتنقل بين نواحيها على مهل، مشيرًا إلى مقياس النيل الذي بناه معاوية، مع صعوبة في التعرف على مقياس ألفنتين لكثرة الأنقاض التي تغطي ضفاف النيل.

وقد كان بوركهارت حريصًا على تقديم ملاحظات عامة عن النوبيين وتاريخهم وما يتداوله النوبيون عن أنهم عربًا من جزيرة العرب، مع دس بعض المعلومات المغلوطة حول هروب المسيحيون سكان بلاد النوبة القديمة من وجههم حرصًا عل حياتهم من القتل أو اعتناق دين الغزاة. ومن خلال هذا العرض التاريخي يشير إلى سبب الوجود التركي وجنود البوشناق في بلاد النوبة بقلاع أسوان وإبريم وصاي. كذلك يشير إلى العلاقة بين حكام أقاليم النوبة الثلاثة ومحمد علي ودفعهم للضرائب له بشكل منضبط، وثروتهم الضخمة وعجرفتهم وإن ازدرى فيهم لباسهم الذي يأنف الجندي الصغير من الترك أن يرتديه. كما أشار إلى طريقة تقدير الإيراد والضرائب في النوبة وأنها تقدر بعدد السواقي التي يملكها الفلاحون، وليس على مساحة الأرض أو عدد الأفدنة، وهذه الطريقة هي المنتشرة على ضفاف النيل حتى سنار. وطرق ووسائل حكام النوبة عديدة في تحصيل الضرائب قهرًا وغصبًا، حتى أنهم يلجئون للتزوج من بنات من تظهر عليه ملامح الثراء، فتكون المصاهرة وبالًا على والد الفتاة جراء ما يحصل عليه الحاكم من أموال من والدها بحجة أنه يقدمه هدية لابنته. وشطط حكام النوبة جاوز الحد بحبسهم أولاد ونساء النوبي الهارب لابتزازه وجعله يعود، وهو أمر لم يشاهده بوركهارت من قِبل قضاة ولاة مصر أو الشام حتى مع ألد أعدائهم وأبناءهم.

وتكاد تعتقد أن بوركهارت ينتمي للمدرسة الحتمية في الجغرافية في ربطه بين جسم النوبي وطوله وقوته الجسمانية بعرض الوادي وضيقه، كذلك أشار إلى أثر المناخ الصحي في النوبة، وأنه خلال فترة رحلته هذه لم يرى شخصًا يعاني من مرض، وأن الأوبئة المتفشية لا تكاد تجدها، وقد أشار إلى خطأ الرحالة بإدعائهم أن الجدري يأتي من الجنوب، خاصة وأنه لا يكاد يتخطى تأثيره الشلال الثاني، وفي شهادة كاشفة منه يؤكد على حسن أخلاق سكان النوبة، وأن نسائهم على قدر من الجمال المغلف بعفة وحياء، كما أشار إلى أن الرذائل يمقتها أهل النوبة، وعلى رأسها البغاء الذي فشى في مصر بسبب المماليك، وإن أشار إلى أن حكام النوبة يقلدون المماليك حتى في رذائلهم هذه، كما أشار إلى عادات الزواج والطلاق في النوبة، وأغانيهم وآلة الطمبورة المصرية وحب الفتيات للغناء.

ورغم الفترة القصيرة التي قضاها بوركهارت في بلاد النوبة إلا أنه كان قادرًا على جمع المعلومات الكافية عن سلوك وعادات وطباع سكانها وقبائلها، مؤكدًا على رقتهم ولطفهم وكرمهم للضيفان، واستهجانهم للسرقة وعدم تفشيها فيهم، لدرجة أنه كان ينام أمام خيامهم ومنازلهم ولم يفقد منه أي شيء طوال رحلته وإن يكن تافهًا، وإن أخذ عليهم فضولهم. كذلك قدم نبذة مختصرة عن قبائل البشارية والعبابدة وعشائرهم وأماكن استقرارهم، ويبدو أنه حكم على تلك القبائل بما هو مسموع عنهم، فقد أشار إلى ثراء العبابدة ولكنهم سيئوا السمعة يرميهم كل من اتصل منهم بالخيانة، وأن البشارية سكان الجبال أبعد عن العمران الحضري أسوأ سمعة من العبابدة، ولا يتورعون عن السرقة والنهب بل إنه يتهمهم بأنه لصوص عريقون يسرقون حتى مضيفهم، مشيرًا إلى ذلك الصراع الخفي بين البشارية والعبابدة، فالبشارية لا يخشون أحدًا إلا العبابدة الذي يعرفون منتجعاتهم ويأخذونهم على حين غرة في مضاربهم، ولا يتحدث البشارية العربية بل يتحدثون لغة قريبة من اللغة الحبشية، ورغم ذلك فإن أفراد البشارية بينهم وبين بعضهم البعض تراحم وجود وأمانة على غير ما هو سائد عنهم.

الرحلة الثالثة: الرحلة من صعيد مصر إلى بربر

بعد عودته من رحلته السابقة على ضفاف النيل حتى دنقلة، اتخذ بوركهارت من إسنا مقرًا له منتظرًا خروج قافلة تصل إلى بلاد النوبة الداخلية، ولكن لظروف عدة منها وجود قاطع طريق اسمه نعيمًا، وتراجع إنتاج الذرة كل ذلك أدى إلى تأجيل حركة القوافل، وفي أثناء ذلك كان بوركهارت يذهب لقرية دراو الواقعة إلى شمال أسوان على الضفة الشرقية، ليتعرف على أخبار القافلة، وبالفعل تأهب للخروج في قافلة كان قد تقرر خروجها من دراو، وقد تخلى في هذه الرحلة عن خادمه، وظهر بمظهر تاجر فقير لا يمكن تمييزه عن أي شخص آخر من بلاد الصعيد مرتديًا الزعبوط، وسراويل من الكتان الأبيض الخشن ولبدة من الصوف وضعها على رأسه. ولا يمكن إلا أن تعجب من هذا الشاب في تلك البيئة البعيدة النائية، حيث لا تستطيع أن تميزه عن باقي أفراد المجتمع الذي يعيش فيه، فقد امتلك قدرة كبيرة على التماهي بشدة معهم، لدرجة أن المصحف كان لا يفارق أمتعته.

اجتمع شمل التجار في الأول من مارس وحملت البضائع إلى ميدان مواجه للقرية اسمه برزة الجلابة، ومع منتصف النهار بدأت الرحلة وقد رافقتهم نساء وأطفال العبابدة يشيعوا القافلة، وحصل بوركهارت على توصية من أحد أصدقائه في قرية دراو "الحاج حسين العلوان" بأن وصى به ابنه وأخيه، وفي (٣مارس من عام ١٨١٤) غادرت القافلة وادي معشوشب الذي باتوا فيه ليلتهم بعد خروجهم من دراو، ودخلوا وادي أم ركبة، ثم وادي أبو كبير وقد أشار إلى وفرة الماء في أي من أرجائه إن حفرت عليه في الرمل. وفي طريقهم ينتقلون من وادي لآخر وصلوا إلى قرية الخطارة، وهناك كمن أهلها للقافلة كي يجبروها على دفع ضريبة مرور، ولكن كان النزال بين العبابدة وأهل تلك القرية قد انتهى لصالح العبابدة ومرت القافلة دون دفع أي أموال، وفضل خبراء القافلة ألا يستخدم

بوركهارت بندقيته مفضلين أن ينتهي الأمر بالتفاهم، وهو ماتم بالفعل، وآثر هؤلاء الخبراء ألا يبيتوا في أبو عجاج القريبة من الخصوم، وفضلوا السير حتى وصلوا وادي هود وهناك حطوا رحالهم.

في (٥ مارس) سارت القافلة في طريق من الصخور الرملية تقطعها طبقات من المرو، حتى بلغوا وادي ضيق اسمه أم الجبال، وسمى كذلك لكثرة ما به منعطفات، وعلى الرغم من فقد القافلة للنظام، فهناك رابط بينها وبين باقي القوافل السابقة، وهي أنها لا تحط رحالها إلا في مواضع معلومة، وهي في ذلك مقيدة بالمواضع التي تجد فيها المرعى والكلأ، ورغم أن التجار المصريين في القافلة كان لديهم حرية أكبر يتحركون وفقًا لهواهم، فإن الجميع يتقيدون برأي العبابدة في جميع المسائل الخطيرة، وكان شيخ العبابدة هو رئيس القافلة برضى الجميع، وفي اليوم التالي وقفت القافلة أمام مستودعًا طبيعيًا للمياه يعرف باسم "دمحيت" تتجمع فيه مياه الأمطار، وقد ذكر أن هذه المياه تتجمع في الوادي وتنتهي إلى الجنوب من أسوان عند قرية دهميت. وفي (٧ مارس) التقت القافلة ببعض عرب البشارية الذين يسكنون الجبال الغنية بالكلأ والماء في فصل الشتاء، ومع قدوم الصيف ينزلون منها طلبًا للماء الوفير من الآبار القريبة من نهر النيل، وقد تعرض بوركهارت لموقف غريب من قِبل الرجل الذي اشترى منه بعيره على أن ينقل له حمولته على الجمل، يوضح إلى أي مدى أن أحكام هؤلاء الرحالة الأجانب التي لا نقبلها منهم كان لها ما يبررها.

وخلال (٨ مارس) حطت القافلة بجانب جبال حريذل الجرانيتية، ثم انطلقت سائرة في منطقة تخلو من الماء والكلأ بشكل كبير، لدرجة أن أشلاء الجمال وعظامها كانت مبعثرة على طول طريق القافلة، وفي اليوم التالي اضطرت القافلة للرحيل بعد أن حطت بجوار صخور تدعى بيبان وذلك نظرًا لحاجتها للمياه، حتى وصلت وادي نقيب الحافل بأشجار السنط وبئرين لا بأس بمائهما. وقد تعرض بوركهارت لمعاملة سيئة من قبل مرافقيه في القافلة باعتباره تركي، وكان العرب يكرهون الترك، وقد حاولوا استفزازه كي يرد عليهم فيتخذون من رده مطية لضربه ولكنه كان حكيمًا، بل إنهم لم يساعدوه في رفع دلوه بالماء بعد أن نزل البئر، ولولا أحد الخبراء الذي قدموا له يد المساعدة لما حصل على الماء الذي يريده. وفي (١٠ مارس) دخلوا وادي حيمور، ماءه كثير وإن كانت معظم آباره زعاق كريهه، وقد أتى على ذكر المماليك الفارين وقصتهم مع العبابدة في وادي حيمور، ويدخل وادي حيمور ضمن أملاك العبابدة، لذا فإن البشارية يدفعون ضريبة سنوية لرؤساء العبابدة مقابل انتجاعهم بالوادي. وقد سارت القافلة في نفس اليوم لتقطع عقبة حيمور وتصل إلى وادي غدير آملة في الحصول على ماء ولكن كانت جماعةمن العرب قد سبقتهم ونزحته قبلهم.

وفي (١١ مارس) وصلوا إلى بئرة المُرة، وهي بالفعل كذلك مقارنة بماء النيل العذب، ولكن عرب الصحراء لا يأنفون منه من كثرة ما ألفوا من مياه مرة، والغريب في الأمر أن البئر لا ينضب ماءه، وقد عُرف البئر من اسم الوادي الذي يقع فيه العين، وساروا شرقًا وصولا لوادي العلاقي، وهو وادي عامر بالكلأ والشجر الكثير، وتتجمع فيه السيول وتصب في النيل، وللوادي منزلة كبيرة في نفوس البدو، لدرجة أنهم حمدوا الله على بلغوه سالمين "السلام عليك يا وادي العلاقي الحمد لله الذي جيناك بالسلامة"، وفي وادي أم قات حيث يكثر شجر السنط ونبات الحنظل، وفيه تعرض

بوركهارت لقذف كرات الحنظل والتي كادت أن تصيب أنفه لولا استجارته برئيس القافلة، وكان نتيجة ذلك أن لُقب "بالواد الخواف"، وقبل شروق يوم "١٢ مارس" بلغوا نهاية وادي أم قات، ودخلوا سهلًا رمليًا فسيحاً حتى اخترقوا سلسلة جبال البحر الأحمر صخورها من الحجر الأحمر، ودخلوا وادي الطواشي، وهو منسوب لأحد الخصيان من سدنة الكعبة المشرفة، وقد قتله أدلاءه عشيرة حميداب العبابدية، ويعامل مقام الطواشي معاملة الأولياء والشهداء، وبعد وادي الطواشي دخلوا وادي أبو روشن وفيه لقى أول فوج من الغزلان منذ بارحوا دراو، وفيه كذلك شجرة السلم الذي يتخذ البدو منه عصيًا يحلمونه معهم إن لم يحملوا رمحًا.

وفي يوم (١٣ مارس) دخلوا وادي أم برد، وقد عُرف بهذا بسبب الرياح الباردة التي تهب فيه حتى في فصل الصيف، وفي الوقت الذي كان أفراد القافلة يتنازعون على مواضع الظل فإن بوركهارت كان في كرب شديد يتلظى في حرارة الشمس فضلًا عن إعداده لطعامه بمفرده، وكان الإفطار عبارة عن كعكة ببصلة نيئة أو بعض التمر، والغذاء فطيرة تصنع من الدقيق المعجون بالماء ويخبز على الصاج، ويصب عليها السمن أو الشهد أو المرق المطبوخ من السمن والبامية المجففة، أما العشاء فعدس مطبوخ أو خبز بملح يخبز على الصاج أو الرماد، ثم مرق من البامية أو البصل يصب على العدس أو الخبز بعد تفتيته، ويؤكد بوركهارت أنه كان موفور الصحة رغم التعب الذي كان يعانيه جراء سيره نهارًا نحو أربع ساعات لإراحة حماره، ورغبة في الاستراحة من عناء ومشقة الرحلة فإنه بحث عن شخص يعد له الطعام مقابل مشاركته فيه فلم يجد. وحطت القافلة بالقرب من آبار نابه في وادي انتشرت فيه أشجار الدوم، وفي هذا الوادي التقت القافلة بقافلة صغيرة من العبابدة نقلت لهم أخبار غير سارة عن بئري شقرة والنجيم، الأمر الذي جعل بعض أفراد القافلة يفكر في العودة مع قافلة العبابدة الصغيرة، ولكن تم ثنيهم عن هذا العزم، وقام الدُراويون بشراء بعير قوية لحملها الماء، وقد ملئوا قربهم من بئرين من آبار نابه العديدة، مائها لا بأس به ولكنه شحيح.

وفي (١٤ مارس) تشاور افراد القافلة في أمرهم والطريق الذي سيتخذونه، وقد انتهى الأمر بأن يأخذوا الطريق المعتاد على الرغم من قلة الماء، وتجهزوا للأمر فحملوا إبلهم بما استطاعوا من قرب الماء، ولكنها رغم ذلك لم تكن تكفي إلا لثلاثة أو أربعة أيام، وقد اهتم بوركهارت بأمر حماره، لأنه في مثل هذه الظروف سوف يكون سنده لتحمل مشقة تلك الرحلة، بل إنه يستطيع أن يتحمل عطش يومين وهو على ظهر الحمار، ولكن موت الحمار يعني إعياء وعجز عن السير يومًا كاملًا دون أن يشرب، وما زاد من مصائب القوم أن كُسرت رجل أحد الجمال الحاملة للمياه فتمزقت القرب وانسكب ماؤها فذبحوه. وفي اليوم التالي حطت القافلة بوادي الطرفاوي نسبة لشجر الطرفاء، ورغم مصاعب تلك الرحلة فإن بوركهارت قد أشار إلى أن صحراء النوبة أقل وحشة من صحراء السويس والرحلة بين حلب وبغداد أو بين الشام والمدينة، وكاد بوركهارت أن يتخلف عن القافلة لتوقفه بنقل ماء إحدى قربه الكبيرة في قربتين صغيرتين وضعهما على حماره، بعد أن تعلل الأعرابي الذي حملها له على جمله مقابل أجر أن الحمل ثقيل على الجمل.

وفي (١٦ مارس) دخلت القافلة وادي كوع واستراحوا فيه قليلًا ثم تحركوا نحو وادي صفيحة وهو وادي صغير أحاطت بهم فيه بحيرات السراب ذات اللون الأزرق الخالص، وبعد هذا الغدير الصغير دخلوا وادي أم دوم، على اسم شجرة الدوم، ولكنه لم يعثر فيها لا على شجر الدوم ولا على غيرها. وفي (١٧ مارس) دخلت القافلة وادي تكثر به شجر الدوم حيث توجد عين شقرة، والجبال المحيطة به من الجرانيت، والطريق إلى عين شقرة شاق لأنه في نهاية درب ضيق جدًا، وقد اضطرت القافلة للمكوث يومًا آخر لملء قربهم بعد أن تلطف العبابدة بالمصريين وتركوهم يملئون قربهم أولًا، فاستغلوا الأمر وسقوا إبلهم، فنزحوا ماء العين، فما كان من العبابدة إلا أن قرروا البقاء حتى تمتلئ العين مرة أخرى ويملئون قربهم، وعند العين فقد بوركهارت إحدى قربه التي كان قد ملأها بالماء، وفشل في شراء واحدة أخرى، ولكنه عُوض عنها بقربة صغيرة من الماء على يد رئيس القافلة، وتحرك الجمع من وادي شقرة نحو جبال النوبة، وهي كلها من الجرانيت وعرة، وقد مرت القافلة بوادي قبقبة ثم وادي زيناتيب وهي أودية أقرب لأن تكون منخفضات من الأرض تنتشر فيها بعض الشجيرات، ويشير بوركهارت إلى أن القافلة منذ شقرة بدأت تعتمد على بصر البدوي الحديدي وخبرته الطويلة، أما قبل ذلك فإن المسافرين يمكنهم أن يهتدوا بمعالم الجبال وآثار القوافل التي سلكتها من قبل.

وفي (١٩ مارس) مرت القافلة بوادي دبموكايب وهو اسم بشاري ثم وادي أبو ضي وصولًا إلى آبار النجيم، وقد مروا في طريقهم بقبور أجواد الأرياب، وهي مدن أبطال الأرياب وهي قبيلة بشارية، وفي (٢٠ مارس) بات بعض افراد القافلة يحفرون بئر النجيم الليل كله حتى تمكنوا من أن يملأوا القرب بشق الأنفس، وغيرت القافلة طريقها إلى بربر متخذين طريقًا مستقيمًا نجو الجنوب الغربي، ومرو بوادي ملهب، وهو من الأودية التي تتجه نحو نهر النيل، وفي هذا الطريق لا أثر لجبال أو تلال، بل صخور من الجرانيت أو المرو مبعثرة في السهل، وفي ذلك اليوم اتهم رجل من دراو بوركهارت أنه حل قربته وسقى منها حماره، وسبه بأقذع الألفاظ وحصبه بالحجارة، ويبدو أنه أقنع القافلة بصحة الإتهام. وفي اليوم التالي دخلت القافلة وادي عامور، وكانت ليلتهم في الوادي قارسة البرودة اوقدوا فيها شجر السلّم والسنط لأجل الدفء، وقد آثر بوركهارت حماره على نفسه بأن أعطاه الماء الجرعة بعد الجرعة خوفًا عليه من العطش أو أن يفقده في تلك الظروف المضنية، كما أنه اقتصد في استخدام الماء واعتمد على الكعك دون الطبخ حفاظًا على ما معه من ماء قليل، وكادت القافلة تهلك لولا أن أنهم ارسلوا بعض رجالهم ليملأوا قربهم من نهر النيل ولم يكن يبعد عنهم سوى خمس أو ست ساعات، ولكن الخوف كان كبيرًا لأن ضفاف النيل هنا يقطنها عرب أعداء للتجار، وقد سلمت القافلة بالفعل وجاء الرجال بالماء وتغير الحال من كآبة وصمت إلى فرح وتهليل وأعد القوم عشاءًا وفيرًا وباتوا يغنون حتى الفجر، وموت المسافرين في مثل هذا الطريق أمر نادر الحدوث، إلا في حالة نضوب ماء آبار النجيم كما حدث معهم هذه المرة.

وفي (٢٢ مارس) نزلت القافلة وادي نتيلة، وقد عانوا من قيظ النهار في ظلال شجر السنط، وشاهد النعام الذي يكثر في أرجاء هذا السهل، وتعرضت القافلة لريح جنوبية، لا فتاكة ولا قتالة

كما يروى عنها، وجُل ما تفعله أنها تجفف الماء في القرب فيتعرض المسافر لخطر العطش، ولكن لما كانت قرب الأقطار الجنوبية تصنع من جلد البقر فإن الرياح لا تقوى على تخللها، مقارنة بقرب الماعز والأغنام في مصر وشبه الجزيرة العربية، وفي طريقهم إلى وادي الحمار، حيث يكثر الحمار الوحشي، كانت القافلة على مسافة أربع ساعات من نهر النيل فقط، وبين فقرات كتابه لا يفتأ بوركهارت أن يشير إلى بروس والصعاب التي واجهها مع إيماءه بسيطة بأنها كانت تحمل مبالغة مقارنة بما شاهده وعاينه.

وفي (٢٣ مارس) وصلت القافلة إلى نهر النيل، وحطت في قرية النخيرة وهي أهم قرى إقليم بربر، وقبلها في وادي بلم (أو سلم) أجبر العبابدة تجار القافلة على دفع نصف أجرتهم، وقد أشار بوركهارت إلى محاولة التجار مغافلة موظفي الجمارك، بأن ينزلون في هذا الموقع ليلًا سترًا لبضاعتهم ومحاولة لتهريب بعضها دون أن يؤدوا عليها ما يجب من رسوم، وقد أشار إلى أن الطريق فيما بين دراو وبربر يمكن أن يقطع في أقل من الفترة التي استغرقتهم وهي اثنتين وعشرين يومًا، بل إن البعض يقطعه في ثمانية أيام، وقد تستغرق شهرًا إذا ما سقط المطرمشيرًا إلى جبال عتباي ويعنون بها الجبال البعيدة عن النيل القريبة من البحرالأحمر، والتي تدخل في ملكية العبابدة، ولما لم يكن بالنخيرة خان فإن التجار يلجئون ضيوفًا على أهل القرية، وقد نزل بوركهارت مع آل علوان على رجل من اقارب شيخ القرية اسم "إدريس تمساح".

وأخذ بوركهارت في الحديث باستفاضة عن إقليم بربر وعن قراه التي يسمونها أودية، وعن اسم البرابرة الذي يطلقه المصريون على النوبيين، وإن كان أهل بربر لا يستخدمونه فيسمون أنفسهم النوبيين والكنوز، ويردون أصلهم إلى الجزيرة العربية، وهم ينتمون إلى قبيلة الميرفاب، ويعد إقليم عرب الشايقية أكبر أقاليم بربر، ويحمل زعيم القبيلة لقب مِك وهو اختصار للفظ ملك، ويحصل على هذا اللقب من ملك سنار، الذي يمتد نفوذه على ضفاف النيل حتى الحدود الجنوبية لوادي المحس، ونفوذ ملك سنار لا تتعدى أكثر من حق اختيار ملكها، وذلك لمن يدفع أكثر، وقد أخذ بوركهارت في تعريف القارئ بمساكن البربر وأقسامها الداخلية وطبيعة أثاثها، كما تناول الخصائص الجنسية لسكان بربر مع التأكيد على كونهم ليسوا زنوجًا، وأكد على حرص عرب الميرفاب على الحفاظ على نقاوة سلالتهم وعدم الاختلاط والزواج بغير نساء القبيلة، وقد أشار إلى ولعهم بالشراب خاصة البوظة، ويؤثرون أحيانًا عدم الأكل طول اليوم ليتسنى لهم الشرب والقصف ليلًا، كذلك يمكننا التعرف على طعام وغذاء سكان بربر وعاداتهم الغذائية، وقد أشار إلى قدرتهم على المداراة ومنافقة الغرباء، ولكن هذا لا ينطلي على من عرفهم وعايشهم، وحبًا في العلم فإنه نبه إلى أنه لا تكاد تجد أسرة من أسر بربر المحترمة إلا ولها ولد أو قريب ينقطع في شبابه لدراسة الفقه والشريعة، ولكنه طعنهم بأنهم يدعون التمسك بأهداب الفضيلة، كما أن أهل بربر لا يتمسكون بأمور الشرع كثيرًا، حتى أنهم لا يلقون تحية الإسلام المعتادة "السلام عليكم" بل يقولون "طيب"، ويكثرون من استخدام التمائم والأحجبة، حتى أن بوركهارت حصل على حجابين أحدهما لقلب الحبيب والآخر للوقاية من الإصابة بأي جرح.

ويتمتع أهل بربر بصحة جيدة ويرجع ذلك لمناخهم الصحي الجاف، ولا يعرفون الطاعون الأمر الذي جعل بوركهارت يؤكد على أنه لا يتجاوز الشلال الأول، ولكنهم يعانون من الجدري الذي يفتك بهم فتكًا ذريعًا كما حدث في مجاعة عام ١٨١٣، وحدث مرة أخرى في عام ١٨١٥، وقد جلبه إليهم قوم من التاكة نقله إليهم تجار سواكن، ورغم معرفتهم بالتطعيم" دق الجدري" إلا أنهم لا يثقون فيه ولا يقبلون عليه، وعن نشاطهم الاقتصادي فإنهم لا يزرعون إلا القليل من الأراضي لارتفاعها عن مستوى مياه النهر كثيرًا، ورغم ذلك فإنهم لا يستخدمون الري الصناعي، الأمر الذي جعلهم يتعرضون لكثير من القحط والمجاعات، والذرة تعد المحصول الرئيس في بربر ولا يزرعون القمح، ولا يزرعون من الخضر إلا البصل واللوبيا والبامية والملوخية، ولا يزرعون من الفاكهة شيئًا، ويعد النبق البري فاكهتهم الوحيدة. ويربي أهل البربر ماشية كثيرة من خير الفصائل، وتعد الأبقار والإبل عماد ثروتهم فضلا عما يملكونه من الغنم والماعز، وينتجعون بها في فصل الشتاء والربيع في جبال البشاريين عقب سقوط المطر، وفي فصل الصيف يعلفونها في البيوت بسيقان الذرة الجافة وأوراقها. وإلى جانب حيوانات الماشية تلك التي تربى لغرض الحصول على اللبن واللحوم أو البيع، فإنهم يمتلكون الخيل وكذلك الحمير.

وإلى جانب نشاطهم الزراعي فإنهم يمتهنون مهنة التجارة حين يفرغون من زراعتهم، لذلك أصبح بلدهم سوقًا رئيسًا للتجارة، وزاد من أهمية ومكانة بلدهم التجارية أن جميع القوافل القادمة من سنار وشندي تمر ببربر في طريقها إلى مصر، كما أن لبربر تجارتها مع مصر، ويتعامل أهل بربر بالريالات أو الذرة وذلك في بيعهم وتجارتهم وقد يستخدمون الدمور كذلك، وعلى كل قافلة تفد بربر عليها أن تؤدي للمك "الملك" ضريبة مرور يتطلب جمعها من كل فرد عدة أيام، ورغم ما يجمعه مك بربر من ثروة إلا أنه يقوم بتوزيع جزء منها على أقربائه وأتباعه لذا تجد أنه لا يجمع ثروة ذات بال، ولا يفرض مك بربر إتاوة على القوافل القادمة من الجنوب والداخلة في الصحراء عند بربر لأنها قادمة من عاصمة سيده، كذلك فإن العبابدة لا يدفعون ضرائب لأنه أهل سلطنة كما يقولون، ولكن حقيقة الأمر لأنهم يخافون من بأسهم وإغارتهم عليهم وسلبهم أموالهم وعبيدهم ليلًا.

وقد أشار بوركهارت إلى القوافل التجارية التي تفد إلى بربر من إقليم التاكة، وكذلك البدو البشاريون والزراع المقيمون على نهر مقرن، أو مأرب ، ليشتروا حاجاتهم من السلع المصرية أو مقايضتهم بما معهم من جلود ثيران وجمال، كما تأتي قوافل البشارية من سواكن حاملة التوابل والأقمشة، وفكر بوركهارت في اختراق طريق التاكه ولكن بعد استفسار تأكد من خطورة الأمر على حياته خاصة وأن قبائل البشارية تهاجم القوافل التي تخترق بلادهم، ولا يترددون في الفتك بالرجل حتى لو كان موصى عليه من قبل الملك مقابل الحصول على ما معه حتى لو كان شيئًا تافهًا، وقد ذكر مصير أكثر من رجل أوربي تعرض للقتل في مثل تلك الطريق، وربما كان مكث بوركهارت في الشام لفترة وتعلمه العربية وذكاءه الشخصي أن مكنه من التعامل مع مثل تلك الصعاب التي كانت من الممكن أن تودي بحياته، ولا شك أن الصراع بين المماليك والدناقلة في دنقلة قد أثر على التجارة، وكم كان خوف بوركهارت من أن يظنوا فيه أنه من أتباع الباشا في مصر أو ينتمي لجيشه، وفضل

أن يتناقل القوم عنه أنه من المماليك على أن يلحقوا به التهمة الأولى، خاصة وأن رؤساء القبائل في سنار وبربر كانوا ينظرون إلى سلطته المتزايدة في مصر نظرة غيرة وحسد، وكان التجار يحقدون عليه لغلوه في فرض الضرائب الباهظة عليهم، وقد أتى بوركهات على ذكر الملك نمر في شندي الذي احتمى به الهاشمي ملك كردفان الذي سلبه "المتسلم" أحد موظفي ملك دارفور ملكه، ورغم إيواء نمر للهاشمي فإنه تآمر مع إخوة نمر ضده فقتله نمر إنتقامًا منه.

الرحلة الرابعة: الرحلة من بربر إلى شندي

في (٧ أبريل) آثر بوركهارت الخروج مع القافلة إلى شندي خوفًا على حياته من المكوث في بربر وبقاءه تحت رحمة الميرفاب الذي قدر أنهم سارقيه حتمًا، ولعله يجد قافلة مأمونة يصحبها إلى البحر الأحمر، وقد وصلوا قوز الفونج (وفي بلاد الزنج يطلقون لفظ قوز على كل قرية مبنية في السهل الرملي) وكانت فيما مضى أهم قرى بربر، وفي اليوم التالي وصلوا لإقليم "راس الوادي" وهناك كان عليهم أن يدفعوا ضريبة مرور للملك حمزة، ابن عم الملك نور الدين في بربر، وهو كذلك يتبع ملك سنار، وفي راس الوادي نبذ المصريون بوركهارت واضطر لأن يلجأ لجماعة العبابدة خوفًا على حياته من لصوص الميرفاب، وكان انضمامه للعبادة خيرًا من بقاءه تحت رحمة الدُراويين يهينونه ويبتذونه، وقد كان بوركهارت على درجة كبيرة من الذكاء مكنته من التعامل مع كثير من الصعاب التي قدر أنها يمكن أن تواجه، وكان تخلصه من حماره المصري الأصيل ومبادلته إياه بحمار آخر أقل شأن قبل وصوله لبربر أن مكنه من أن يحتفظ بهذا الحمار الضعيف، في حين أن حماره الأول القوي قد استولى عليه الملك حمزة لابنه عنوة. وفي (٩ أبريل) بارحت القافلة رأس الوادي على خوف من النزلات التالية لها المليئة باللصوص، ووصلت القافلة نهر مقرن، الذي عرفه بروس باسم مأرب، والنهر هو الحد بين إقليم راس الوادي والدامر، وسكانه من بدو الجعليين ويهتمون بالزراعة إهتمامًا كبيرًا ويرعون الماشية الكثيرة.

أقامت القافلة في الدامر ما بين (١٠-١٥ أبريل) وقد أعجب بوركهارت بأهلها وفضلهم كثيرًا على أهل بربر، وقد أفاض في الحديث عن نظافتها وتناسق بيوتها وانتظام شوارعها، وسكانها من عشيرة آل المجذوب، ويرأس القرية فقيه حيث يقضي في الخصومات ويتسمى باسم "الفقي الكبير"، وأشار إلى مدارسها التي يؤمها طلاب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء السودان ليدرسوا الفقة ليصبحوا فقهاء كبارًا في بلادهم، ولأول مرة يتناول بوركهات شأن الجامع ومكانة الفقيه في بلدة الدامر، وإن دل ذلك على شيء دل على مكانتها وأهميتها الدينية بالنسبة لما حولها، حتى لتكاد تعتبر دولة دينية صغيرة، يخشاها البشاريون خوفًا من أن يقطع عنهم فقهاء الدامر المطر بما لديهم من سحر فتهلك أغنامهم ومواشيهم، وقد سأل الفقيه بوركهات عن أي المدارس تعلم فيها وأي الكتب قرأ مؤكدًا على أنه اقتنع بردوده وإجاباته، وقد تيسرت حال بوركهارت في بلدة الدامر من خلال بيع السبح فحصل على ما يحتاجه من عليق وذرة لحماره، كذلك بما يحفظه من القرآن حضر مأتم تناول فيه الطعام واللحم الشهي ونفحه صاحب البيت ضلوع مشوية لعشاءه. وأهل الدامر يعتنون بالزراعة ويزرعون القمح لا للتجارة ولكن ليتناوله الفقهاء كترف تعلموه في أثناء مقامهم في

مصر، كما يزرعون البامية والشطة الحمراء التي يصدر بعضها، ويعتمدون على الري الصناعي فتمكنوا بذلك من الحصول على محصولين في العام.

في (١٥ أبريل) غادرت القافلة الدامر وعلى رأسها فقيه كي يصل بهم إلى إقليم شندي ويمر بهم في طريق كثيرة لصوصه، ولكنهم يجبنون من الاقتراب من قافلة على رأسها فقيه، بل إنهم يقتربون منها لتقبيل ولثم يده، وفي الطريق كان بوركهارت يحمل بندقيته، وكانت فارغة من البارود، فاقترب منه كبير التجار الدُراويين وأمره أن يعبئها، فرفض ونشب بينهما شجار قال له التاجر أنه غير جدير بحمل البندقية، فرد عليه بوركهارت بأنه قد يكون بالفعل كذلك ولكنكم تجدون العصا أو المنجل أليق لأيديكم من السيف، فضربه الرجل ضربة موجعة على كتفه، وحاول ثانية إلا أنه تلقاها على بندقيته ورفعها كي يهوي بمؤخرتها على رأسه، لولا أن أفراد القافلة فعلوا حسنًا فحالوا بينهم، فاكتفى بوركهارت بقذفه بوابل من الشتائم، وتدخل العبابدة إلى جانبه مؤكدين على أنهم لن يسمحوا بإهانته بعد الآن.

ووصلت القافلة إلى قرية حواية بعد أن اجتازوا قرى عرب المكابراب الذين يعيشون على محصول أرضهم ومن السرقة، وقد سلمت القافلة لوجود فقيه من الدامر على رأسها، وفي قرية حواية سعدت القافلة بأمسية سعيدة في النهر، وإن تعرض فيها بوركهارت لسرقة مسابحه وعمامته، وقد عادت مسروقاته بأن اشتكى لشيخ القرية، لكنه اضطر لأن ينفحه ضعف ثمن مسروقاته. وفي (١٦ أبريل) وصلت القافلة لقرية قباني وفيها شاهد بوركهارت بناءًا هرمي الشكل يعتقد أنه الأصل في مقابر منف العظيمة، وحطت القافلة بقرية "جبيل أم علي" ليلًا وهناك نالوا حظهم من العشاء الذي بعثه لهم فقيه القرية الكبير، وهو أحد أقارب ملك شندي. وتكاد تلحظ الحزن باديًا على كتابة بوركهارت في أنه لم يوفق في الوقوف على الأطلال التي كان يمر عليها أثناء سير القافلة، فلم يكن قادرًا على الوقوف بها لتقيده بسير القافلة، ووصلت القافلة قرية صغيرة تدعى "روّا" في (١٧ أبريل)، وهناك تنحرف التلال المشرفة عليها فتترك سهلًا فسيحًا وهي منتجع العرب الجعليين، تسرح فيه قطعانهم، ويزرعون فيه البصل الذي يبيعونه في شندي. وبعد فترة وصلت القافلة "بيوضة" وهي ذات سهل خصب، وينتجون الملح الذي يعد سلعة هامة في تجارة شندي، ويشتري تجار سنار كميات كبيرة منه لأسواق الحبشة، ولأهميته فإنهم يقايضون عليه بالذهب والرقيق في رأس الفيل.

وفيما بين (١٧ أبريل و ١٧ مايو) نزلت القافلة شندي، ونزل بوركهارت مع العبابدة في منزل صديق لهم، وقد أشاد ببلدة شندي، فهي أكبر بلاد شرق السودان بعد سنار وكوبي، وأكبر من عاصمتي دنقلة وكردفان، وبيوتها أعمر من بربر وأقل خرابًا، كذلك أشاد بالملك نمر، الذي ينتمي لقبيلة الجعليين من ناحية الأب وود عجب التي تنتمي للفونج من ناحية الأم، وهو يخضع لملك سنار شكلًا من حيث دفعه للضرائب له، لكنه فيما عدا ذلك مستقلًا مطلق التصرف في إقليمه، وتكثر القبائل العربية في شندي، ورغم ذلك فإنه ليس منها ما قد بلغ من القوة التي تمكنها من منازعة الملك نمر وقبيلته الكبيرة في السلطة، ويمتاز الملك نمر بعدله وعدم تسلطه في جمع الضرائب، الأمر

الذي انعكس على ثراء شندي التجاري وجعلها مركزًا لتجمع العديد من التجار من سنار ودنقلة وكردفان ودارفور. وقد اشار بوركهارت إلى تفشي السرقة والتعدي في شندي وعدم وجود رادع غير السجن يومين أو ثلاثة لمن يرتكب تلك المخالفات، أو يعود لمنزله بعد أن يدفع غرامة صغيرة للملك ورجاله، مقارنًا بين الأمر هناك مع عقاب السرقة في كردفان وهو الإعدام كما نقل له، كذلك تنتشر بيوت الليل ومشارب البوظة شأنها في ذلك شأن بربر.

وقد أسهب بوركهارت في الحديث عن محاصيل شندي الزراعية وكيف أن سكانها يكسلون عن إمكانية زراعة الأرض أكثر من مرة كما في الصعيد، ويزرعون الذرة والقمح والدخن، وبعد الخضروات مثل البطيخ والخيار، وتمتلك أسر شندي الكثير من العبيد يصل عددها لنحو اثنى عشر عبدًا، كما أنهم أنظف وأكثر تأنقًا في ملابسهم من سكان بربر، وتلبس نساءهم الذهب في أنوفهن وآذانهن، وماشية شندي طيبة، وعن الحيوانات البرية فإن الزراف والفيلة والنعام والغزال توجد على أطراف إقليم شندي، وفرس النهر أو البرنيق يعيث فسادًا في محاصيلهم ولا يقدرون عليه، في حين أن التمساح كثير كذلك ويسبب لهم هلعًا ويصيدونه ويأكلون لحمه، وقد أكل بوركهارت لحم تمساح في إسنا ولحمه قريب الشبه بلحم العجل، وفي رائحته أثر من رائحة السمك. كذلك يكثر الخيل في شندي ويمتلك ملكها العديد منها حيث يستخدمها فرسانه، وإن لم يلحظ عليهم بوركهارت مهارة فرسان المماليك أو حتى عرب الشايقية. وكاد الملك نمر أن يضم بوركهارت أن يضم لخدمته لما شوهد ذات مرة ينظف بندقيته، وعُرض عليه الأمر وأُلح عليه في ذلك ولكنه رفض، الأمر الذي كلفه بندقيته للملك مقابل أربع ريالات وصحاف من الخبز واللحم من مطبخ الملك الخاص، وعبثًا حاول استرداد بندقيته، وقد أُسر له أنه أصبح صديقًا للملك طالما أكل خبزه، فعار عليه إذن أن يمنع حصوله على البندقية، وقد حزن بوركهارت كثيرًا عليها خاصة حينما طاف بخاطره ما ينوي ارتياده من أقطار مجهولة، وإن رأى أن الريالات الأربعة ليست بسيطة في مثل الظروف التي كان عليها.

واعتقد بوركهارت أن إمكانية الاستيلاء على قارة أفريقيا أمر يسير المنال، فإذا ما تيسرت فرقة مدربة على الصبر والاحتمال وبما لديها من أسلحة فإنها ستشق طريقها دون أي صعاب، وقد توصل لذلك من خلال إدراكه لجهل سكان أقاليم السودان بشئون الأسلحة النارية وهيبتهم لها وتخوفهم الشديد منها، وهي تلك الأقاليم القريبة الصلة بالعثمانيين، فما بالك بما هو في قلب القارة، وقدم خبراته بأن تلتزم تلك الفرق العسكرية بالسير على ضفاف الأنهار وأن يتخيروا المناطق العالية لقضاء فصل المطر فيها، وكان استيلاء المماليك بعدد لا يتجاوز ٢٥٠ جندي على دنقلة أمرًا بعث فيه الجدية بشأن محاولة الاستيلاء على القارة بالفعل. وقد تناول بوركهارت بإسهاب الحديث عن سوق شندي والسلع التي يتم تداولها فيها مثل اللحوم، واللبن، والتبغ، والبقالات والعطارات، وخشب الصندل، والصمغ العربي، والقرفة، والحلبة، واللبان، والششم، والكحل، وكان بوركهارت قد جمع عينات من تلك المواد التي الإتجار فيها ولكنها ضاعت منه، وهذا التنوع التجاري دليل على مكانة شندي وأهميتها التجارية بالنسبة لما حولها من أقاليم، الأمر الذي جعل شندي ملتقي لآلاف

الناس من بلاد تبعد عنها ثلاثة أو اربعة أيام وذلك يومي الجمعة والسبت، وهما موعد السوق الكبير فيها،

كما تناول بوركهارت الحديث عن أنواع الأنشطة والبضائع التي يتم تداولها في ذلك السوق الكبير، وقد اثنى على كثير من الصناعات التي توجد فيه مثل صناعة الأحذية والجلود والحدادة، ، وما يجلبه الريفيون من سلال وحصر وجلود الثيران لبيعها، وحركة البيع والشراء في السوق نشطة لدرجة أنه كان يعجز أن يستمر فيها عدة ساعات، ويترك بضاعته الضئيلة لأحد رفاقه، ورغم ذلك فإنه لم يرى نساجون بشندي، رغم أنهم يزرعون القطن وإن كان إنتاجها ضئيل منه ومغازلهم التي في يد النساء والرجال تشبه تلك التي توجد في مصر والشام، أما عن أنواع البضاعة التي تفد من مصر إلى شندي فيأتي السنبل والمحلب ويستخدمان في التطبب والتداوي بها، والصابون وهو سلعة موفورة الربح، واقماع السكر، والتاكات "كمبريت" يبطن به النساء ملاياتهن، وكذلك القماش القطني الأبيض ذو الإطار الأحمر من صنع المحلة الكبرى، والكتان الأسيوطي، وجلود الغنم المدبوغة بأصوافها، والمسابح والعقود وأشهر أنواعها الذي يصنع في دندرة ويصنع من نوى الدوم، وكذلك الخزر وإن كان أكثر رواجًا في الحبشة، والمرجان وهو من النوع الرديئ، والورق القادم من جنوة ولجهورن، والقصدير والنحاس الأصفر والسلك الأسفر، ومن السلع الحديدية تعتبر أمواس الحلاقة أروجها، وتأتي من ألمانيا، وكذلك المبارد والكستبانات والمقصان والإبر القادمة من نورمبرج، والمسامير والزناد لقدح الشرر،والسيوف، وكذلك الكحل والقطران لتطلى به قرب الماء كي لا ترشح، وتطلى به ظهور الإبل لحمايتها من الجرب أو علاجا له، والحلي لتتزين به النسورة كالأساور والأقراط. بالإضافة إلى المرايا المذهبة من صنع البندقية وتريستا.

وقد أشار بوركهارت إلى ما تدره التجارة من ربح كبير خاصة وأن بضاعة الجنوب تباع في مصر بضعف أو ثلاثة أمثالها كذلك تجارة مصر تباع بمثل ذلك المكسب الكبير، بل إن هناك من البضاعة ما تدر نحو ٥٠٠%، وقدر أنه لو انتظمت الرحلات التجارية فمن الممكن تحقيق مكاسب أكبر وتواصل بين تلك الأقطار، وخوف التجار على أموالهم يجعلهم لا يتجرون إلا بأموال بسيطة فإن عائلة علوان التجارية التي صحبها لم تكن تحمل من التجارة إلا ما يقدر بنحو ١٠٠٠ ريال رغم وجود نحو اثنى عشر فردًا من تلك العائلة بالقافلة، ويرجع ضعف إقبال تجار مصر الكبار الى التجارة في السودان إلى عزوفهم عن الإتجار في العبيد باعتبارها تجارة تسئ لإنسانيتهم وتدينهم، كذلك ضياع أموالهم واستيلاء الملك عليها كما حدث مع بكير أغا الذي غادر مصر ما بين عامي ١٨٠٤-١٨٠٦ ومات في رحلته فاستولى ملك شندي على أمواله لقمة سائغة.

وعلاقة سنار بشندي التجارية علاقة منضبطة ومتواصلة حيث يفد إليها قافلة كل ستة أسابيع أو شهرين ويعد الدمور والذهب أهم سلع تلك القوافل، كذلك ذكر الشهد، ومسك قط الزباد، والكرابيج والأبنوس وقرن الخرتيت، والبن، ولم يثبت لدى بوركهارت أن تاجر مصري وصل إلى الحبشة أو رأس الفيل الواقع في غربها، رغم أن الطريق إليها غير خطر وذلك خوفًا من غدر وخيانة التجار، والطريق يكاد يكون حكرًا على التجار الأحباش المعروفون باسم "الجبرت"، ويشتري

تجار سواكن الذهب من تجار سنار ليقايضون عليه في تجارتهم في جدة لشراء البضائع الهندية، ويعد العبيد من السلع الهامة التي يأتي بها تجار سنار، وقد أشار بوركهارت إلى أن عدد ما يباع في مصر منهم لا يزيد عن ١٠٠، ومعظم تلك السلعة تباع في شندي حيث يؤثر ملوكها شرائهم لخدمة زوجاتهم، ومعظم العبيد من الحبش أو النوبا من الشعوب المجاورة للجلا والأمارا أو الأمهرة، وقد ذكر أن في مصر يفضلون النبوباويون لأنهم أكثر قوة واحتمالًا للعمل، أم الحبش فإنهم أكثر أمانة وإن لم يصلحوا للعمل البدني، لذا يعملون كتابًا، وتجار شندي أكثر غنى من تجار مصر، حتى أنه ذكر أن أحد تجار شندي ابتاع بمفرده قافلة مصرية تتكون من ثلاثين راحلة.

وقد أكد بوركهارت على أن التجارة تخضع لتحكم الملوك فرغم أن الطريق بين كردفان وشندي مأمون إلا أن حركة القوافل توقفت بسبب حاكم كردفان الذي يمنع التجار طمعاً في مزيد من أرباح تجارته، ويصل مع قافلة كردفان تجار من دارفور كذلك، وأهم سلع قافلة كردفان الحبال الجلدية، والصمغ العربي والعرديب (التمر هندي)،واللبان، والنطرون والششم الذي يستخدم في مصر علاجًا للرمد، والشوشة (نوع من البازلاء)، والجربان وقرب الماء المصنوعة من جلود الثيران، القصاع الخشبية التي تستخدم بديلًا للأواني والصحاف وريش النعام، ويمتاز تجار كردفان بالأمانة والسمعة الطيبة، ويحملون من سوق شندي السنبل والمحلب والكحل والعقود والتوابل خاصة القرنفل، والبضائع الحديدية والدمور والكتار المصري وأقمشة الهند القطنية المجلوبة من سواكن، والبن والريش والثياب الحجازية الحريرية. وللحدارية أو الحضارمة القادمون من سواكن مكانة كبيرة في سوق شندي فهم أغنى من يؤم السوق، ولا يمر شهر دون أن تصل قوافلها أو تخرج إلى سواكن، والعلاقة على ما يبدو بين تجار سواكن وتجار مصر ليست جيدة، وهم يذهبون بقوافلهم كذلك إلى سوق سنار وسوق الأبيض في كردفان، ويجلبون لشندي السلع الهندية مثل الكمبريت (بفته وبنوه) القادم من مدراس وسورات، والموسلين الخشن القادم من البنغال، والتوابل والأفاوية خاصة القرنفل والزنجبيل، والسكر الهندي، والعقود اليمنية، وخشب الصندل، ويحمل تجار سواكن معهم الخيل الدنقلاوية والصمغ العربي والعبيد والذهب، وتجار سواكن عرب أحرار يحترمهم الملك كثيرًا ويتحفونه بالكثير من الهدايا التي لا يحصل على مثيلها من سواهم من التجار.

ويتحدد أقصى مدى للتجارة في غرب السودان بدار صليح ولعلها الباقرمي في غرب دارفور، أما ما يقع إلى غربها من اقاليم فهي موصدة أبوابها أمام هؤلاء التجار، مهما كانت سلعهم ومهما كان احتياجهم إليها، وفي إقليم بحر الغزال في اتجاه حدود بورنو تبدأ تجارة فزان أو تجارة زيلع، وقد أفاض بوركهارت في الحديث عن التجارة لأنه عصب الحياة في شندي وبربر وأشار إلى إمكانية تسميتهما بأنهما أمة من التجار، وقد أسهب في الحديث عن أهم أنواع التجارة فيهما وهي تجارة الرقيق، حيث يبلغ حجم المباع في سوق شندي سنويًا قرابة خمسة آلاف يحمل السواكنيون نصفهم والمصريون نحو ١٥٠٠ والباقي إلى دنقلة ومواطن البدو، وقد أشار بوركهارت إلى الأماكن التي يجلب منها هؤلاء الرقيق، وأعمارهم حيث يفضل المشترون صغار السن على كبار السن، ليربوا على يد

سيدهم، وقد أفاض بوركهارت الحديث عن الرقيق وتنقلهم بين يد التجار مرات عديدة حتى ينتهي بهم المطاف في بيت سيده الجديد.

وأشار كذلك إلى الخصيان، ويفدون باعداد قليلة من برقو غربي دارفور، وأوضح أن عملية الإخصاء تجرى في أسيوط بقرية تدعى "زاوية الدير" على يد راهبان من القبط، وهو أكبر مصنع يزود تركية الأوربية والآسيوية بهؤلاء المسئولون عن عفة النساء، وهذه العملية غير الإنسانية كانت تجرى للعبيد الذين يتراوح عمرهم بين ثمانية وإثنى عشر عامًا، أما من هم في سن أكبر من ذلك فهم عرضة أكبر للموت، ومعظم الخصيان يعملون في بيت الباشا وأبناءه، كما يتم نقلهم كذلك إلى الأستانة، وقد أمر محمد علي بخصي مائتي عبد قدمهم هدية للسلطان. ويتم إطلاق أسماء عربية على هؤلاء العبيد، ولكن قل من سادتهم من يعلمهم القراءة أو أركان الإسلام ومن العبيد هؤلاء من تجدهم أشد عداوة وتزمتًا من العلماء تجاه المسيحيون والفرنجة، وأكد على أن تجارة النخاسة رغم جهود أوربا وإنجلترا في القضاء عليها فإنها ستظل قائمة ما دامت السودان في يد المسلمين، ودعى إلى أن تقع مهمة الزود عن تلك التجارة على كاهل سكان الأقاليم الوثنية من خلال تعليمهم الحرف والصناعة كي تمكنهم من مواجهة هؤلاء المسلمون وأن يسعى الأفريقيون الذين تعلموا في أوربا إلى مساعدة إخوانهم في القارة نفسها، ومن المحتمل أن تجربة ليبريا في إعادة زنوج أمريكا المحررون إلى أفريقيا هي تفعيل لمثل هذه النصيحة.

وأخذ بوركهارت في الحديث عن أخلاق سكان شندي التي لا تختلف عن أخلاق بربر، وإن كان مك شندي أقوى فتمكن من الحد من شر رعاياه وجشعهم، وسكان الإقليم كلهم من العرب الأحرار، أعزهم في المكانة عرب الجعليين ثم العبابدة وهم من بني هلال وعرب البطاحين ثم عرب الحمدة ويعترفون بقرابتهم لعرب حمدة الأقصر، وهناك عداء بين قبيلة الجعليين وقبيلتي الكواهلة والشكرية وكلاهما عربيتان، يسكنون إلى الجنوب والجنوب الغربي من الجعليين وبعضهم يعيش في الصحراء وعلى ضفاف نهر العطبرة، والإغارة لا تنقطع بينهم، والكواهلة أقوى من الشكرية ويرعون الماشية الممتازة، وهم كما يقول بوركهارت يدينون بالإسلام ولو اسميًا.

وقرر بوركهات أن ينطلق من شندي متخذًا طريقه إلى ساحل البحر الأحمر مع قافلة من السواكن، وهناك يأخذ طريقه عبر البحر كي يحج مع اقتراب موسم الحج في شهر نوفمبر، وقد تحوط لأمره كي يتخلص من الدُراويون الذين أساءوا إليه كثيرًا، وقد أشاعوا حوله أنه قد ابتز أموال غيره من التجار في مصر وأن ضياع ماله هو أقل جزاء له مقابل ما اقترفه، ومن خلال هدية صغيرة لشيخ العبابدة قدمه لشيخ قافلة سواكن وأوصى به خيرًا، واشترى بوركهارت بعيرًا وعبدًا وتهيئ في سرية تامة للرحيل إلى سواكن متذرعًا بأنه قد تعب من السفر برًا وأنه سيدخل الحبشة من سواكن عبر مصوع، وقد آثر بوركهارت هذا الطريق كي يضيف معرفة جديدة عن ذلك الإقليم الواقع بين شندي والبحر الأحمر، مع علمه بأن الطريق إلى أثيوبيا أيسر وقد سبقه إليه كلًا من بونسيه وبروس.

الرحلة الخامسة: الرحلة من شندي إلى التاكه

إنطلقت قافلة سواكن في (١٧ مايو) وقد تأخر عنها بوركهارت قليلًا، ولكنه لحقها بعد أن ساعده العبابدة في الخلاص من تعنيف الدُراويين وكذلك من ملاحقة أحد عبيد الملك، وفي اليوم التالي خيموا في الحصاة وهناك رأي بقايا مدينة صغيرة لا تنم مخلفاتها عن تنظيم ولا ترتيب، وفي (١٩ مايو) وصلوا قرية الكبوشية، وقد حصلوا على مائهم من نهر عطبرة، وإن تعرضت إحدى قربه للثقب، وظلت القافلة في سيرها وحطها حتى وصلت نهر عطبرة في يوم (٢٢ مايو) وخلال تلك الفترة انضم بوركهارت إلى مجموعة الغرباء التي في قافلة سواكن، وتقرب منهم كثيرًا وعومل معاملة جيدة من قبلهم، وأظهر حرصًا شديدًا على حاجته من ماء وطعام كي يبدوا أمام القوم صعب المراس، وصلت القافلة قرية عطبرة بعد أن عبروا نهر عطبرة عند مخاضة، وقرية عطبرة يسكنها البشاريون وهي أقرب وقتذاك إلى المخيم من القرية، وهي مقر شيخ قبيلة الحمداب البشارية، وهي غير قبيلة الحميداب إحدى قبائل العبابدة، ويمتهنون الزراعة إلى جانب الرعي، وقد أتى بوركهارت على وصف بشارية الحمداب، فأشار أن جلهم مسلمون وإن لم يؤدوا فرائضة، بخلاء لا يقدمون شيئًا إلى بمقابل حتى الترجمة كانوا لا يأدونها إلا بمقابل حفنات من الذرة، نساءهم جميلات لا يغار عليهن زوج ولا قريب لكن قتلهن أكيد إذا ارتكبت الفاحشة، مشهورون كذلك بالسرقة فرغم حرص القافلة فإنها لم تعدم سرقة محتوياتها حتى أن بعض الجمال قد سرقت. وتمتاز ضفاف العطبرة بخصوبتها ورغم ذلك لا يزرع إلا ضفته اليمنى لما يقوم به عرب الجعليين من غارات للسلب والنهب.

وقد تناول بوركهارت النبات الطبيعي والحيوانات البرية التي توجد في قرية عطبرة، كذلك أشاد بإبل البشارية التي يرسلونها إلى الجبال الغربية طلبًا للكلأ عقب هطول الأمطار عليها، كذلك وصف عادات نساء النساء حين يموت لهم قريب، كما تناول مجرى المقرن الذي يتصل بعطبرة، مرجحًا أن مجراه أبعد إلى الشمال مما على الخرائط المتاحة وقتذاك، وهو جاف تقريبًا خاصة في فصل الصيف، وإلى جانب بشارية حمداب قرية عطبرة فإن هناك جيران لهم آخرون حيث قبيلة كرب المقيمة في مصعد النهر صوب قوز رجب، وقبيلة البطراب، وكلاهما بشاري، وبعد أن جمع ملك عطبرة ضريبة المرور المقررة على كل فرد، إنطلقت القافلة في (٣١ مايو) في طريقها إلى التاكه سالكين طريقهم مع نهر العطبرة، ووصلت القافلة أم داود وهي مضرب من مضارب قبيلة النعقاب البشارية، وهي اقصى حدود البشارية جنوبًا حيث تبدأ أملاك قبيلة الهدندوة، المشهورة ببأسها وشدة شوكتها، ولكن وجود ابن شيخها راجعًا معهم من شندي جعلهم يأمنون شرهم، وفي تلك القرية أثار شكل بوركهارت اشمئزاز وتقزز الزنوج حيث يعتبرون صاحب البشرة البيضاء مخلوقًا أدنى وأحط شأنًا منهم.

وفي الأول من يونيو سارت القافلة مع نهر العطبرة وهي في سيرها هذا تسير في أرض سهلة مليئة بالأحراج من شجر النبق والسيال واللالوب، والطيور التي لم يرها بوركهارت من قبل والتي لا يوجد اسماء لها في لغة البشارية، وقد طارد بعض أفراد القافلة حيوانًا قال عنه أنه الحمار الوحشي، وفي (٣ يونيو) وصلت القافلة قوز رجب، وسكانها خليط من العرب والبشارية والهدندوة والجعليين والشكرية وذلك لغرض التجارة، ولا يشتغلون بالزراعة، وتدخل "قوز رجب" في أملاك

سنار وحاكمها من أسرة ود عجيب، وهناك رأى بوركهارت معبدًا ولكنه لسوء حظه لم يتمكن من فحصه خوفًا من اللصوص الهدندوة الذين يختبأون فيه، وكذلك لأن القافلة قد تحركت على عجل خوفًا من هجوم البشارية. ولأهل قوز رجب تجارة نشيطة مع سنار وشندي وقد يذهبون للدامر لبيع ماشيتهم.

وفي (٤-٥ يونيو) سارت القافلة في طريق سهلي منبسط لدرجة أنها ضلت الطريق لعدم وجود معالم تهدي المسافرين في هذا الطريق، وسارو نجو الجنوب الشرقي حتى وصلوا حدود إقليم التاكة، وهناك خيموا وسط خيام الهدندوة الذين لم يلقوا منهم إكرامًا يذكر، وتعرضوا لهبوب عاصفة رملية عصفت بخيام القافلة وأثارت الاضطراب في الإبل التي قطعت مقاودها وفرت خوفًا من الهلاك، لم تبق القافلة طويلًا في مخيم الهدندوة وتحركت في اليوم التالي نحو جنوب الجنوب الشرقي فوق سهول التاكة الخصبة حتى خطوا في مخيم "فريق"، وتناول بوركهات الحديث عن إقليم التاكة أو "القاش" بالإشارة إلى خصب أراضيه ووفرة ماءه، ومحصول الذرة المميز الذي يزرع فيه، ويصنع منه خبز لا يفضله خبز القمح إلا قليلًا، كذلك الماشية التي تربى فيها لا تقل شهرة عن شهرة ذرتها، وأبقارها ذات سنام ويتعامل بها الناس في بيعهم وشرائهم كما في دارفور وكردفان، ويجمع أهل التاكة بين البداوة وسكنى الحضر ويعيش فيها بدو الملكناب، وبدو سقولو وبدو الحلنقية وهي عشيرتان عليا وسفلى، والتاكة من بلاد البجة وتمتد من قوز رجب على طول مجرى عطبرة حتى جبال الحبشة جنوبًا، ويحدها جبال لنقاي في الشمال ولكن حدودها الشمالية لم يحددها بوضوح، كذلك تناول الحديث عن الحيوانات المفترسة التي تحيط بهم مثل الأسد والنمر والأفاعي، مؤكدًا على أنه ليس بين وحوش هذه الغابات ما هو أشرس من البجاة أنفسهم.

والهدندوة في التاكة هي أقوى القبائل وأضعفها الملكناب، وينتشر في المخيم الذي نزلته القافلة مشارب البوظة وبنات الليل، وهم مسلمون لكنهم يجهلون شعائره فيما عدا من أدى فريضة الحج، وفي الهدندوة كسل مفرط، الأمر الذي ظهر من قبل في أنهم لا يزرعون الأرض إلا مرة واحدة رغم إمكانية زراعتها أكثر من مرة، مما يعرضهم للمجاعة في بعض سنوات نقص الفيضان، وقد أخذ عليهم بوركهارت بخلهم الشديد حتى على الحجاج الفقراء الذين يمرون بأراضيهم قاصدين الحج، وهذا البخل أورثهم عادات أخرى مثل السرقة حتى أن رحالتنا قد تعرض لسرقة الدمور الذي يعرضها للبيع من على كتفه وهو يكيل بعض الذرة، ويتفشى بينهم الحرب خاصة مع البشارية الأمر الذي جعلهم أهل حرب وقتال، ويثأرون لقتلاهم، لدرجة أن قبيلة الحلنقية يشرب اقارب قتيلهم من دم قاتله بعد ذبحه بشفرة ذبحًا بطيئًا، وبالقرب من مضارب الهدندوة قرية على أطراف الصحراء تعرف باسم "سوق الهدندوة" مقر الشيخ الأكبر لهدندوة التاكة، باع فيها بوركهارت ما أحضره من تجارة من شندي مقابل الذرة، وقد اثار فيها اشمئزاز وتقزز الرجال ناهيك عن النساء بسبب غرابة وطرافة منظره كما يقول. وفي سوق الهدندوة توجد العديد من السلع فبالإضافة إلى الماشية هناك الحصر والسلال والقدور لطهي الطعام وأباريق الوضوء ورحال الإبل والحبال من السمار والجلود والقرب والدجاج ولحم الجمل المجفف، والفاكهة من اللالوب والنبق التي يصنع منها

مربى النبق اللذيذة، والتاما الشبيهة بالقرفة، والصمغ العربي والقرض والملح وريش النعام الأبيض والأسود، والتبغ والتوابل بكافة أنواعها واللبان والخرز والآلات الحديدية والدمور والقرنفل.

وقد أشار بوركهارت إلى خطر عرب الشكرية الذين يعيشون على الطريق المباشر بين التاكة وشندي الأمر الذي يجعل التجار يلجئون لطريق أكثر طولًا طلبًا للسلامة في رحلة تستغرق ثمانية أيام، في صحراء رملية لا ماء فيها حتى عطبرة، يمرون فيها بقرية منان وفي هذا الطريق يوجد عرب عمران وعرب الضباينة، حتى يصلوا لقرية الدنرر ثم عبر الصحراء حتى يصلون سنار. كما ذكر بوركهارت مراحل الطريق المؤدي إلى رأس الفيل، وقد تمنى بوركهارت لو تيسرت له الأمور للرحيل إلى مصوع كي يمر عبره بالقبائل التي تمثل همزة الوصل بين الحبش والعرب، مثل أحباش إقليم وقات الذين لهم تجارة وإن كانت قليلة مع الحلنقة، فهو يفتقد للغة التفاهم معهم، فهم لا يتحدثون العربية، ولا يملك من وسائل الدفاع عن نفسه، ودليله في أفضل الأحوال سوف يمر به عبر أراضي قبيلته فقط ليتركه نهبًا في ما تلاه من أراض غريبًا ضائعًا.

وتأهبت القافلة بعد أن باعت تجارتها في التاكة واشترت وقايضت مقابلها ذرة وتحركت في (١٥ يونيو) في حالة كبيرة من الاضطراب، حتى أن بعض التجار قد تركوا ديونًا لهم خوفًا من فوات القافلة، ويقول بوركهارت أنه لم يتعرض لأذى البتة في التاكة، وأنه قد تظاهر بالورع والتقوى كما كان حاله في شندي، حيث سعى جهده أن يقلد الفقهاء الذين يحبهم أهل هذه البلاد لاشتهارهم بالعلم الغزير والخلق الكريم، وهكذا انطلقت القافلة قاصدة سواكن، ولكنها كادت أن تحجز لوصول خبرًا بأن رجلًا من التاكة قتل أحد الحدارية، ففكر الهدندوة في حجز القافلة، ولكن جاءهم نبأ أن الحدربي دفع دية القتيل وسويت المسألة وفض النزاع.

الرحلة السادسة: الرحلة من التاكة إلى سواكن.

تحركت القافلة في (١٥ يونيو) متجهة نحو الشمال الشرقي تمر في أراضٍ تارة رملية وأخرى خصبة تشق الصحراء بفضل فيضان مياه التاكة (القاش)، يصحبهم عدد من الحجاج التكارنة، ويصحح بوركهارت أصل تسمية الحجاج بهذا الاسم مشيرًا إلى الخطأ المتداول بأن الاسم يرجع إلى أنهم من بلد اسمها تكرور، ولكن اسم التكارنة من الفعل تكرر "أي تنقى" بمعنى أن مشاعرهم الدينية تنقت وتطهرت بحفظ القرآن والحج، وقصدهم حفظ القرآن والأحاديث النبوية في مكة والمدينة وكذلك طلب العلم في القاهرة بالأزهر، ومعظمهم لا يملك شيئًا ويعيش خلال رحلته على إحسان المحسنين وإن كان منهم يتاجرون أثناء الرحلة، وعتاد الحجاج التكارنة بسيط للغاية، ويسافرون في جماعات ثم ينضمون للقافلة، ويذهبون إلى مكة بطريق أسيوط أو سنار أو شندي.

وقد ميز بوركهارت بين الحجيج التكارنة فالقادر منهم يلتحق بقافلة دارفور، حيث تتطلب شراء ما يكفي من الزاد والإبل لقطع الصحراء حتى أسيوط ومنها عبر الصحراء الشرقية إلى القصير ومنها إلى جدة بحرًا، أما القادمون من كردفان فيسلكون طرق ثلاثة أولها يشق الحبشة مارًا بغندار وأكسوم إلى مصوع، والثاني على ضفاف النيل من سنار إلى شندي، والثالث من سنار إلى التاكة

بطريق رأس الفيل ثم إلى الحلنقة، وفي طريقهم إلى الحبشة يعاني التكارنة من سوء معاملة الأحباش المسيحيون وإن أصابوا منهم طعامًا موفورًا على عتبة الباب كأنهم الكلاب، ويعملون في مصوع ليكسبوا نفقات رحلتهم البحرية إلى ساحل اليمن أو جدة، والتكارنة يفضلون الرحلة الطويلة الأقل مشقة على أن يقطعوها في وقت أقل بطريق غير مأمون، ويتعرض التكارنة للسرقة خاصة من الشايقية وبدو عطبرة والتاكة، خاصة بعد أن عُرف عن هؤلاء الحجيج أنهم يحولون جميع ما معهم من أموال لذهب لسهولة إخفاءه، ويلقى التكارنة في طريقهم للحج عبر مصر على شاطئ النيل كثيرًا من السخاء، بالإضافة إلى الأروقة التي ينفق عليها من أموال المساجد.

والحجاج الزنوج على العموم قوم مجدون دءوبون، كما يقول بوركهارت، ما دام في إمكانهم كسب قوتهم بالعمل فهم لا يستجدون إلا نادرًا، ولكنهم رغم ذلك يقتصدون أيما اقتصاد، حتى أنهم يعودون أدراجهم من سواكن لرفضهم أن يدفعوا إلا ريالًا أجرة نقلهم عبر السفينة، عائدين إلى التاكة ومنها إلى مصوع واثقين أنهم سيجدون من يقلهم بريال هو كل ما يملكوه، وهذه الرحلة تكلفهم نحو ثلاثون يومًا إضافيًا، ويبدو أن الوقت في تلك الأيام لا جدوى منه، كما أن الهدف أعظم وهو زيارة بيت الله الحرام، وقد شاهد بوركهارت حاجًا أعمى قطع جميع تلك الرحلة حتى وصل إلى مكة، وهناك جلس على أحد أبواب المسجد يستجدي، وهو على ثقة أنه سيعود ميسور الحال، كما أن بعضهم يتصعلق في الطريق خوفًا من أن تؤذيهم مظاهر النعمة.

أما عن خط سير القافلة فإنها قد سارت تقطع العديد من الأودية الممتلئة بمياه الأمطار حتى حطوا بوادي لادو، وتكثر به أشجار الدوم وأهله من بدو الهدندوة، وفي (١٧ يونيو) وصلت القافلة إلى وادي عدي وفيه مخيم كبير للهدندوة الذين غادروه مخافة هجوم البشارية، وفي اليوم التالي اختلف رئيس القافلة مع التجار السواكنية حول أي الطرق يجتازون، فافترقا بعد أن أصر رئيس القافلة على اخذ الطريق الأطول راحة للإبل من وهاد ونجاد الطريق الآخر الأقصر، ولكنهم عادوا مرة أخرى خوفًا من تعريض أنفسهم للخطر، وفي (١٩ يونيو) وصلت القافلة وادي أرواد، وفيه كاد بوركهارت أن يتعرض لغدر أحد السواكنية يكلفه حياته، ولو حدث ذلك ما تجشم أحد عناء البحث عنه أو الثأر له، وفي طريقهم كان شجر السدر والطرفاء يملئان الوديان المنخفضة، كما تمتلأ بالماء الناتج عن المطر، وحيث تتوافر المياه تصبح الأرض خصبة موفورة، وفي تلك الأراضي توجد القردة بين الشجر، وكذلك الغزلان والأرانب الجبلية.

وفي (٢٠ يونيو) اجتازت القافلة جبل عرباي لنقاي وهو حافل بالكلأ لغناه بالآبار والنيابيع الكثيرة، وجبل لنقاي مسكن عرب الهدندوة، كما أنه حد مناخي فاصل في شرق النوبة، حيث الأمطار في الجنوب منذ بداية يونيو في حين أنها تسقط في الشمال في يوليو، وفي اليوم التالي اتجهت القافلة نحو الشمال الشرقي ليمروا بوادي عمويت قرب بركة ماء، وفي يوم (٢٢ يونيو) وصلت القافلة لوادي معيز، وفي اليوم التالي إلى وادي عسير، وتنتشر في تلك الأودية قطعان الغنم والإبل التي يرعاها الهدندوة، وقد مرت بهم قافلة من الهدندوة يحملون معهم نساءهم في رحالهم المزرخرفة، ويذكر بوركهارت أنه لم تمر به امرأة إلا صاحت بصوت عال ثم ضحكت عليه، وفي يوم

(٢٤ يونيو) تقدم رئيس القافلة بصحبة بعض التجار في اثناء الليل لبلوغ سواكن في الغد لامتلاكهم هجان طيبة، وقد مرت باقي القافلة بوادي شنتيراب الذي يمتلأ بالمياه في موسم المطر، وفي ذلك اليوم ساعد بوركهارت أحد تجار كردفان الذين نفق جملهم، فكان عليه أن يرد له بعض الجميل الذي سبق وأن قدمه له هذا الرجل فحمّل جمله بمعظم حمولة الجمل النافق وأكمل المسيرة لسواكن سيرًا على قدميه. وفي (٢٥ يونيو) وصلت القافلة فنقراب الذي تسكنه أسر من الهدندوة تمد سواكن بالزبد واللبن في الصيف حين ترحل عنها ماشيتها، وفي طريقه إلى الجبل شاهد بوركهارت إبل أقرب إلى التوحش ولا يطلب الهدندوة منها غير اللبن واللحم ولا يستخدمونها للحمل إلا قليلًا، كما أنها لا تألف الغرباء وكذلك الجمال الغريبة. وعانت القافلة فيما عدا السواكنية عجز الماء، فقد ارسل تجار سواكن عربيًا فجلب لهم الماء، وعبثًا حاولت القافلة الحصول منهم على الماء، وفي اليوم التالي وصلت القافلة مشارف سواكن.

وقد تناول بوركهارت مدينة ومرفأ سواكن باستفاضة متحدثًا عن موقعها عند أحد الخلجان الصغيرة على ساحل البحر الأحمر، وبناءها على واحدة من الجزر التي تقع مقابل الساحل، بالإضافة إلى ضاحيتها "القيف" التي تقع على يابس القارة، ومنازل كل منهما ومنزل الأغا الرث وإن كان يطل على منظر رائع ممثلًا في الميناء، ويتولى الأغا منصبه بالتعيين من قبِبل والي جدة، فهو بمثابة تابع له، وقديما كان لسواكن والٍ يتم تعيينه من القسطينينية حينما أرسل سليم الأول جنوده لضمها لسيادة الدولة العثمانية. وفي وقت قيام بوركهارت برحلته فقد أضحت سواكن ضمن ولاية وسيادة محمد علي بعد أن استولى على الحجاز من السعوديين، ويسكن سواكن العديد من الأجناس وإن تم التمييز بين الحدارية "الحضارمة" ومعهم أحفاد الترك القدامى، ثم الحضر وهم إما ترك محدثون أو عرب من خط الساحل المقابل. ويسيطر على شئون سواكن أحد أبناء الحدارية من قبائلها الخمس الكبيرة والذين يسمون "أرتيقة" بمعنى الأشراف باللغة البشارية، ويبلغ عدد سكانها حسب تقديره نحو ثمانية آلاف نسمة، يعيش ثلاثة آلاف منهم في الجزيرة والباقي في القيف.

وتمتلئ سواكن بالعديد من أنواع وأصناف التجارة القادمة من أقاليم السودان والحبشة التي يتم نقلها إلى اليمن وساحل جدة، وكذلك تلك التي تأتي من الساحل المقابل أو حتى من الهند ويتم نقلها إلى داخل أفريقيا. ولا تكاد سفينة ترحل من سواكن لثغور الحجاز واليمن دون أن تحمل ذرة التاكة بالإضافة إلى سلع شندي وسنار من العبيد والذهب والتبغ واللبان وريش النعام، ويحقق تجار سواكن الذين لا مهنة لهم غير التجارة مكاسب ضخمة، حتى أن القربة تباع في الحجاز بثمن يعادل ثمن الشاة في سواكن، ويرجع ذلك إلى أن الحجاز ماشيتها نادرة لقلة المرعى، كذلك يتم نقل الخيل والهجن، وتعد الهجن البشارية أنجبها، إلى سواحل اليمن والحجاز ويتم بيعها بأضعاف ثمنها وإن كان النقل السيء يقضي على حياة الكثير من الحيوانات المنقولة. أما تجار سواكن فإنهم يشترون كل ما يحتاجه السوق الأفريقي من سلع الهند والثياب والحلي والأواني المنزلية والسكر واللبن والبصل والبلح والحديد لصنع الحراب، وتعد تجارة العبيد واحدة من أهم التجارات التي تعد سواكن من أهم أسواقها في شرق أفريقيا.

ومعظم السفن التي تبحر بين سواكن وموانئ اليمن والحجاز يمتلكها قوم من سواكن وجدة، وملاحوها من البدو، ولكن أكثر الملاحين من الصومال وهم أنشط الملاحين في البحر الأحمر، وربان السفينة من أهل جدة أو اليمن، وتكاد تكون السفن الموجودة بمرفء سواكن حكرًا على سفن الأهالي، ولا يدخل المرفء سفن أجنبية إلا إذا أكرهتها رداءة الجو على ذلك، كذلك يعمل سكان سواكن بمهنة صيد السمك واللؤلؤ. وكالعادة لم يبخل بوركهارت بالغمز واللمز في سكان سواكن، فهم يتميزون بالجشع والعقوق ولا يحترم الناس إلا قانون الغابة وحده، ولا يعرفون لقرى الضيف معنى، وهم بخلاء حتى أنهم يضنون بثمن القهوة وهو حفنة من الذرة على صاحب المقهى الوحيد بالمدينة، بل إنهم يعبرون القناة المائية الفاصلة بين القيف وسواكن سباحة على أن يدفع أجر مقابل عبورة في مركب. ويتحدث معظم سكان سواكن البشارية أم العربية فيتحدثون بها مع أهل القيف بلهجة غريبة يفمونها.

ويزرع بعض الهدندوة من سكان القيف سهلًا خصبًا إلى الجنوب من المدينة يعرف باسم طوكر، كما أنهم يمتلكون ماشية كثيرة يطلقونها في مسارحها بجبل دئيب ووادية وكذلك جبل لنقاب، وقد كان بجئبل دئيب مدينة يسكنها الباشا في فصل الصيف ينعم بهدوئها وجوها اللطيف، وإلى الشمال من سواكن توجد قبائل الأمرأر وهي قبيلة في عداء مع البشارية على الرغم من أنهم ينحدرون من جد واحد، ويعيشون في صفاء وهدوء مع الهدندوة، والطريق بين سواكن ومصوع لم يكن مطروقًا وقتذاك، وكذلك الطريق بين سواكن وأسوان. والأمرأر والهدندوة على كراهيتهم للبشارية فإن كرههم للحدارية أشد، والعلاقات التجارية بينهما محدودة، على الرغم من أن المسافة بين سواكن وعِلبة أهم بلاد البشارية، وهي جبل عال ملاصق للبحر ذو مرفأ صغير، تتراوح بين عشرة أو اثنى عشر يومًا.

وفي (٢٦ يونيو) حطت القافلة قبيل القيف بالقرب من الآبار منتظرين أمير سواكن أن يبت في أمرهم، وقد أتى بالفعل وأصر على أن يأخذ جمل بوركهارت الذي كان يمني نفسه أن يبيعه ليعتمد على ثمنه في رحلته إلى جدة، وأمام إصرار الأمير اضطر إلى الاختصام للجابي التركي، وقد فكر أن يستفيد من الفرمانين الذين حصلا عليهما من مصر من قِبل محمد علي وابنه إبراهيم لكنه لم يأمن طباع هؤلاء البدو ومدى طاعتهم لسلطان الباشا، وبوصوله إلى الأغا ما كان منه إلا أن أخرج الفرمانين بعد أن سمع ما سمع من سب وإهانة، الأمر الذي جعل الأغا يتحول إلى طلب العفو وإعفاءه من أداء الضريبة، بل أهدى له جارية وثياب من ثيابه، بدلا من تلك التي تحولت إلى أسمالًا بالية، إدعى بوركهارت إنه اتخذها كي تكون سترًا له في تجسسه على المماليك وتتبع أحوال بلاد الزنج بدون أن يلتفت إليه أحد أو يشك فيه. وهكذا أستفاد بوركهارت من علاقته الجديدة بالأغا فكان يذهب إليه كل يوم للغداء وتدخين التبغ العجمي، فتمكن من أن يظفر بالحماية ويجدد نشاطه وقوته بمشاركته في طعامه الجيد، ويقتصد في نفقاته التي لم يتبق منها غير ريالين.

وتجهز بوركهارت لأن يركب أحد المراكب المتجهة إلى جدة، وكان يتمنى لو قصد المخا أولًا متوغلًا في جبال اليمن ومستفيدًا من كتاب الكولونيل ميست ممثل الملك البريطاني في مصر، ولكن

الخوف من حرب الحجاز وأن يقع أسيرًا في يد جيوش الوهابية فيحسبوه جاسوسًا من قبل السلطان العثماني جعله يتجه مباشرة إلى جدة في سفينة تغص بحمولتها من المسافرين والذرة، وقد أمر الأغا ربان السفينة بأن يعفيه من أجرة السفر وأمده بزادًا من البلح والسكر، وقد ندم بوركهارت على ركوبه تلك المركب أو بالأحرى القارب ولكنه على كل حال لم يكن يحصل على مركب أفضل فتلك الفترة التي عبر فيها دائمًا ما تغص مراكبها بحمولتها الزائدة نظرًا لقرب موسم الحج وكان في نوفمبر وقتذاك.

الرحلة السابعة: الرحلة من سواكن إلى جدة

والرحلة عبر البحر إلى جدة بدأت في (٧ يوليو) يتوخى فيها الربان والنوتية الرياح المواتية لإتمام رحلتهم، وفيها يسيرون على طول ساحل البحر الأحمر نحو الشمال يرسون في مرافئ صغيرة حيث يتوافر الماء يعرفها البحارة بخبراتهم حتى يصلوا لجبل مكور ليأخذوا من الرياح الشمالية وسيلتهم لعبور البحر نحو جدة، وقد أشار بوركهارت إلى انعدام وجود مقياس للسرعة أو إبر الملاحة، وكذلك خبراتهم ضعيفة لدرجة لا تجعلهم يجرؤون على الخروج إلى عرض البحر أو التعرض لرياح معاكسة، كذلك أوضح حجم المعاملة السيئة التي يتعرض التكارنة ناهيك عن العبيد لها، فقد كان البحارة يجبرونهم على ملء قرب المياه ويمنعونهم من أن يخرجوا كتيهم بالإضافة إلى سرقة زادهم، وقد رأى بوركهارت خلال رحلته مجموعة من الدلافين وحاول أن يصيد أحدها ولكنه منع من قبل البحارة معتقدين أن جرح أحدها شؤم على الرحلة، ومرت السفينة خلال تلك الرحلة "بالشيخ برغوت" وهو ضريح يقدسه الملاحون السواكنية، كذلك رسو في خليج درورو، وفي طريقهم مروا بحصن أو برج كبير خرب على بعد ميلين من البر، وأمثال هذه الحصون أو الأبراج توجد عند كل محطة على الطريق، وقد أشار بوركهارت إلى السهل الواقع إلى شرق دراو بالصعيد المعروف باسم سهل "الشيخ الشاذلي" ومكانة الضريح عند المصريين، وقصة الزمرد الذي سعى محمد علي لاكتشافه ببعثة تم إرسالها عام ١٨١٢ ونتيجتها أن تم الكشف على قطعة من الزجاج لكن أحدًا لم يجرؤ على أن يخبر محمد علي بحقيقة الأمر.

وخلال تلك الرحلة تعرف بوركهارت على رجل من الأروام المسيحيين من "الجبل الأسود" اسمه "اسطافا" قام برحلة لبريطانيا لصالح محمد علي كي يأذنوا له بالإبحار إلى البحر الأحمر بطريق رأس الرجاء الصالح، وقد دخلت السفينة خليج "الفجيع" وفي (١٣ يوليو) بلغت خليج تاضه حيث توجد قرية للأمرأر، وخلال رسو السفينة كانت القبائل التي تسكن بالقرب من تلك المراسي تذهب للتجارة مع ركاب السفينة يقدمون لهم الماء واللبن مقابل ما معهم من ذرة وتبغ، والبيع والشراء هنا بأن يحلب البدو نوقهم ويضعون اللبن أمامها ويأتي المشترون فيضعون الذرة أو التبغ فإن رضى البائع حمل ما وضعه المشتري وإلا فإنه يقول "كاك" أي امش، وأمرأر تلك القرية يملكون ماشية ضخمة الأمر الذي جعلهم عرضة لهجوم من قبل أهل ينبع من حين لآخر ينهبون ماشيتهم بحجة أنهم يثأرون من الأمرأر لقتلهم بني جلدتهم ممن تحطمت بهم سفينة من قبل.

وفي (١٤ يوليو) وصلت السفينة إلى جزيرة "جبل مكور" وسميت كذلك لأنها تكاد تكون كلها جبلًا صخريًا منخفضًا، ومكور مشتقة من كورّ يكورّ بمعنى العبور إلى البر المقابل، ومنها يتم الإقلاع نحو جدة وذلك لأنها تقع في عروض أعلى من جدة الأمر الذي يمكن السفن من استغلال الرياح الشمالية أيما استغلال، ويستغرق عبور البحر يومين بليلة، ويتعرض بشارية جزيرة مكور لهجمات من الأمرأر تأتيهم من جزيرة تبادة، مما يدفعهم للهروب إلى البر، وهم يسكنون الجزيرة بغرض التجارة مع السفن التي تمر بها من سواكن لجدة أو العكس، ولا يبحر ربابنة السفن في سواكن والقصير إلى الشمال من جبل مكور، فخبرتهم به ضئيلة، وليس هناك غير عرب الزبيدية الذين يبحرون إلى الشمال من هذا الموضع، كما أن عرب الزبيدية دون غيرهم يرسون في مرفئ علبة، حيث يوجد اللؤلؤ وهو كثير كذلك في مرسى دنقلة الواقع على رحلة أربعة أيام من علبة وجنوب جبل مكور.

وفي (١٥ يوليو) هبت ريح انطلقت معها السفينة نحو البر المقابل قاصدين جدة، ولكنهم في اليوم التالي وجدوا أنفسهم إلى الجنوب منها بنحو خمسين ميل، وذلك لجهل الربابنة وعدم قدرتهم على استخدام إبرة الملاحة، وقد تخلص البحارة من التكارنة بأن أوهموهم أنهم على مقربة من جدة وأشاروا إلى جبل يبعد عن مرسى السفينة بنحو اثنى عشر ميل بأن وراءه ماء، وكان هذا السلوك المشين الهدف منه التخلص منهم خوفًا من حصولهم على الماء من البحارة غصبًا، وقد عانى هؤلاء في الصحراء ومات منهم امرأة وغلام. وفي (١٧ يوليو) تحركت السفينة شمالًا تدفعها رياح جنوبية، حتى وصلوا بالقرب من الساحل، وقد حدث كسوف للشمس في ذلك اليوم مما جعل بوركهارت يتهكم على أفعال ما بقى من التكارنة والبحارة من قرعهم للأباريق والسيوف والدُرق والملاعق وإن صلى مسلموا السفينة صلاة الكسوف، وفي اليوم التالي ركدت الريح فاضطر البحارة لاستخدام المجاديف، حتى كلت أيديهم ودخلوا مرفأ مقابل ضريح شيخ اسمه الشيخ عمرو، وعان ركاب السفينة من الظمأ فما كان من بوركهارت إلا أن يطلب من الريس أن يقله إلى البر عن طريق طوف، وتبعه كذلك الرومي وسواكنيان وما معهم من عبيد، وساروا حتى وصلوا إلى مخيم للبدو فشربوا وجددوا نشاطهم، ودخلوا المدينة موفوري الصحة في صبيحة يوم (١٩ يوليو) في حين وصلت السفينة في اليوم التالي ٢٠ يوليو ١٨٤٠م.